الدلالة عند أبى حيان التوحيدى

في

ضوء كتابه الإمتاع والمؤانسة

إعداد

د. محمد عبد اللطيف علي

وكيل كلية اللغة العربية بجرجا

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، حمداً يوافى نعمه وعظيم سلطانه ، ونصلى ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه والتابعين .

- أما بعد -

فإن أبا حيان التوحيدى شيخ الصوفية وفيلسوف الأدباء كما وصفه ياقوت الحموى كان متفننا فى جميع العلوم الشائعة فى عصره من النحو واللغة ، والشعر ، والأدب ، والفقه ، والكلام ، ومن هذه الدوحة المتعددة الأزهار عزمت أن أتصفح أحد مؤلفاته وهو " الإمتاع والمؤانسة " لأتعرف على الجانب الدلالى عند أبى حيان ، وإن كان مسمى الكتاب يظهر من اسمه السمر واللقاءات والمناظرات ، إلا أنه حوى فى طياته كثيراً من العلوم والمعارف ، فهو أشبه بموسوعة ثقافية تحوى : التفسير ، والحديث ، واللغة ، والأدب ، والسياسة والأخلاق ، وتحليل الشخصيات ، وعلم الحيوان ، والمجون ، وتصويراً لعادات وتقاليد ذلك العصر ، ووصفاً للحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية لتلك الحقبة من الزمن .

فقد أوضح أبو حيان فضل العرب والعربية على غيرهما من الأجناس واللغات وأن أول أدوات الكاتب ليتسم بهذه الصفة إتقان اللغة ، وسبر أغوارها فى جميع أساليبها ومختلف فنونها ، وأن يراعى أن المنطوق منها له أدواته وتأثيره بخلاف المدون والمكتوب الذى يحتاج إلى أسلوب يجذب القارئ ويؤثر فيه ، وهذا يؤكد ولا يدع مجالاً للشك فى أن

الحاجة إلى اللغة أمر لا فكاك منه من حيث أسمائها وأفعالها وحروفها وتركيبها ومعرفة لهجاتها ، وعلى رأس هذه الأمور النحو كما قال ابن خلدون " أنه الأهم المقدم إذ به يتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول، والمبتدأ من الخبر ، ولولاه لجهل أصل الإفادة [1] وعلى هذا علاقته بالدلالة لا تنفصم حيث يقول عبد القاهر الجرجانى " الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذى يفتحها [2] ولقد سبق " تشومسكى " فى نظريته " النحو التوليدى التحويلى [3]" فى الاعتماد على العقل ، بأن ما يراه العقل صحيحاً هو الصحيح ، وما يراه خطأ هو الخطأ ، وأن اللفظ والمعنى مرتبطان كالورقة لها ظهر ووجه لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر ، وترجيح أحدهما على الآخر هو إخلال باللغة وكذلك بالأسلوب .

ومن خلال هذه السياحة أظهرنا عوامل التطور الدلالى عند أبى حيان، وأنواع الدلالة وما يحدثه التطور الدلالى من الترادف والاشتراك والتضاد ، كما سبق إلى تصنيف النظريات الدلالية ، وأخيراً اختتمت البحث بالأسلوب والدلالة بتوضيح أسلوب الشعر ، والنثر ، والخطابة والمثل ، والتأويل ، داعماً كل هذه المباحث بآراء العلماء التى تؤكد وتقوى رأى أبى حيان من مصادر كتب اللغة ومراجعها القديمة والحديثة ، داعياً الله أن ينفع به طلاب العلم .

الباحث

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٥ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٨ .

(٣) المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوى . د / رمضان عبد التواب ص ١٨٧ .

نسبه وسيرته :

على بن محمد بن العباس التوحيدى ، أبو حيان : فيلسوف متصوف معتزلى نعته ياقوت بشيخ الصوفية وفيلسوف الأدباء"[1] شيرازى الأصل، وقيل نيسابورى " وقيل واسطى ، كان إماماً فى النحو وفى اللغة والتصوف فقيهاً مؤرخاً "[2] أقام ببغداد ، وانتقل إلى الرىّ ، فصحب ابن العميد والصاحب بن عباد ، فلم يحمد ولاءهما ، ووشى به إلى الوزير المهلبى فطلبه ، فاستتر منه ومات فى استتاره عن نيف وثمانين عاماً [3] .

قال عنه ياقوت الحموى : كان متفنناً فى جميع العلوم من النحو ، واللغة ، و الشعر ، والأدب ، والفقه ، و الكلام ، معتزلياً ، يسلك فى تصانيفه مسلك الجاحظ ، شيخ الصوفية ، فيلسوف الأدباء ، أديب الفلاسفة ، إمام البلغاء ، سخيف اللسان ، قليل الرضا ، لا نظير له ذكاء وفطنة ، وفصاحة ومكنة،حفظة واسع الرواية والدراية "[4].

قال عنه ابن النجار : له المصنفات الحسنة " كالبصائر " وغيرها ، وكان فقيراً صابراً متديناً ، وكان صحيح العقيدة "[5].

ووصفه ابن الجوزى بأنه من زنادقة الإسلام حيث يقول " زنادقة الإسلام ثلاثة : ابن الراوندى ، و التوحيدى ، والمعرى ، وشرهم

(١) الأعلام للزركلى ٤ / ٣٢٦ طبع دار العلم للملايين طبع سنة ١٩٨٤م

(٢) طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكى ٥/ ٢٨٦تحقيق د/ عبد الفتاح محمد الحلو و د/ محمود محمد الطناحى طبع مطبعة هجر سنة ١٩٨٦م .

(٣) الأعلام ٤/ ٢٢٦ .

(٤) بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة للسيوطى ٢/ ١٩٠ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم طبع المكتبة العصرية _ لبنان .

التوحيدى ؛ لأنهما صرحا ولم يصرح[1].

ولكن تاج الدين السبكى أنكر ذلك ووضح السبب فى وصف الذهبى له بالزندقة حيث يقول " الحامل للذهبى على الوقيعة فى التوحيدى مع ما يبطنه من بعض الصوفية هذان الكلامان . ولم يثبت عندى إلى الآن من حال أبى حيان ما يوجب الوقيعة فيه ، ووقفت على كثير من كلامه فلم أجد فيه إلا ما يدل على أنه كان قوى النفس مزدرياً بأهل عصره ، ولا يوجب هذا القدر أن ينال منه "[2].

"تفقه على القاضى أبى حامد المروزى ، وسمع الحديث من أبى بكر الشافعى وأبى سعيد السيرافى ، وجعفر الخلدى "[3].

"لما انقلبت به الأيام رأى أن كتبه لم تنفعه وضن بها على من لا يعرف قدرها فجمعها وأحرقها ، فلم يسلم منها غير ما نقل قبل الإحراق من كتبه : المقابسات ، والصداقة والصديق ، والبصائر والذخائر ، والإمتاع والمؤانسة ، والإشارات الإلهية ، والمحاضرات والمناظرات ، وتقريظ الجاحظ ، ومثالب الوزيرين ابن العميد وابن عباد"[4] وصنف الرد على ابن جنى فى شعر المتنبى [5] فهو " من أولئك العلماء الأدباء ، الذين أصيبوا فى حياتهم بالبؤس والشقاء ، وظل حياته يجاهد ويكافح فى

(١) طبقات الشافعية ٥/ ٥٨٧ .

(٢) الأعلام ٤ / ٢٢٦ .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٥/ ٢٢٨ .

(٤) السابق ٥/ ٢٨٦ .

(٥) الأعلام ٤ / ٢٢٦ .

التأليف واحتراف الوراقة والنسخ وجوب الأقطار ، يقصد الأمراء والوزراء لعلهم يكافئون علمه وأدبه ، فلم يحظ من كل ذلك بطائل ، وعاش كما يقول فى بعض كتبه على نحو أربعين درهماً فى الشهر أى ما يساوى جنيهاً واحداً "[1]. توفى سنة ثمانين وثلاثمائة من الهجرة[2].

كتاب الإمتاع والمؤانسة :

هذا الكتاب الذى يظهر من اسمه السمر واللقاءات والمناظرات حوى فى طياته الكثير من العلوم ، وكأنه موسوعة ثقافية يقول عنه محققه " وموضوعات الكتاب متنوعة تنوعاً ظريفاً لا تخضع لترتيب ولا تبويب ، إنما تخضع لخطرات العقل وطيران الخيال وشجون الحديث ، حتى لنجد فى الكتاب مسائل من كل علم وفن ؛ فأدب وفلسفة ، وحيوان ، ومجون ، وأخلاق ، وطبيعة ، وبلاغة ، وتفسير ، وحديث ، وغناء ، ولغة ، وسياسة ، وتحليل شخصيات لفلاسفة العصر ، وأدبائه ، وعلمائه ، وتصوير للعادات ، وأحاديث المجالس ، وغير ذلك "[3].

وعنه يقول القفطى " هو كتاب ممتع على الحقيقة لمن له مشاركة فى فنون العلم ، فإنه خاض كل بحر ، وغاص كل لجة ، وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة من كتاب الإمتاع بخط بعض أهل جزيرة صقلية وهو :

(١) بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ٢ / ١٩٠

(٢) الإمتاع والمؤانسة تأليف أبى حيان التوحيدى المقدمة ج تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين طبع المكتبة العصرية _ لبنان .

(٣) كشف الظنون عن أساس الكتب والفنون لحاجى خليفة ١/ ١٦٧ طبع دار الكتب العلمية لبنان سنة ١٩٩٢م.

ابتدأ أبو حيان كتابه صوفياً ، وتوسطه محدثاً ، وختمه سائلاً ملحفاً "(١)

"فالكتاب ممتع مؤنس كاسمه ، يلقى نوراً كثيراً على العراق فى النصف الثانى من القرن الرابع - أعنى العصر البويهى - وهو عصر مغبش بالظلام فإنه يتعرض لكثير من الشئون الاجتماعية فى ثنايا حديثه فيصف الأمراء ، والوزراء ، ومجالسهم كابن عباد ، وابن العميد ، وابن سعدان ، ومحاسنهم ومساويهم ، ويصف العلماء ويحلل شخصياتهم ، وما كان يدور فى مجالسهم من حديث وجدال ، وخصومة وشراب ، ويصف النزاع بين المناطقة والنحويين كالمناظرة الممتعة التى جرت بين أبى سعيد السيرافى ، ومتى بن يونس القنائى فى المفاضلة بين المنطق ، اليونانى والنحو العربى ، ورأى العلماء فى الشعوبية ، والمفاضلة بين الأمم ، ... ... كما أن فيه فوائد كثيرة عن الحياة السياسية للدولة ، فهو يصف كثيراً حالة الشعب فى عصره وموقفهم من الأمراء والملوك ، وهيجانهم واضطرابهم وأسباب ذلك "(٢) .

فقد ألف أبو حيان كتابه " الإمتاع والمؤانسة " موضحاً فيه ليالى قضاها مع الوزير أبى عبد الله العارض ، وهو عبارة عن أسئلة من الوزير يجيب عنها أبو حيان ويتخلل ذلك الحوار ، والرد ، و النقد ، وهذا أضفى على الليالى التسع والثلاثين التى وردت فى الكتاب الشمولية فى التعرض للكثير من العلوم والظروف الاجتماعية والسياسية وأحوال العامة

(١) الإمتاع والمؤانسة المقدمة س .

(٢) السابق : المقدمة م .

والخاصة فهو " يصور حياة الأرستقراطيين أرستقراطية عقلية ، كيف يبحثون ، وفيم يفكرون وتلاهما فى شكل قصصى متسم إلى ليال "(١) .

بل إن بعض الباحثين يصف هذه المجالس بلياليها المتعددة بالديمقراطية فى حرية الرأى والفكر فيقول إنها " صور لحرية الرأى والتفكير والتعبير رائعة عندما يسجل محاضر الجلسات كما يسميها الأستاذ أحمد أمين للمجالس التى كان يعقدها الوزراء والعلماء ، فيدل على نشاط ذهنى فلسفى عجيب ، وهذه المجالس يشترك فيها المسلم ، والنصرانى ، واليهودى ، والمجوسى ، لا فرق بين هؤلاء جميعاً ، كما كان يشترك فيها اللغوى والنحوى ، و الفقيه والمتكلم ، والفيلسوف والمؤرخ ، إلى غير هؤلاء ، كل ينهل من هذه الموارد كيف ومتى شاء ، دون قيود أو حدود "(٣)

عصر أبى حيان :

لا شك أن العصر والبيئة لهما أثرهما فى اللغة وفى دلالة ألفاظها على جهة الخصوص ، فاللغة تتأثر بحضارة المجتمع من حيث النظم والتقاليد ، والعادات ، والعقائد ، والاتجاهات ،والثقافة ، والأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، والبيئية ، فكل تغير وتطور فى هذه الأمور يظهر صداه واضحاً فى أداة التعبير وهى اللغة ، فالمجتمع هو التربة الصالحة لنمو اللغة وحياتها فالإنسان يولد وهو مزود بأعضاء النطق ، فإن لم يكن هناك مجتمع يزوده بالألفاظ ما تكلم بجملة ذات معنى .

(١) الإمتاع والمؤانسة المقدمة / ص (٢) السابق والصفحة نفسها .

(٣)جلة فصول -المجلد الرابع عشر -العدد الثالث سنة ١٩٩٥م ص ١٣٤ فى مقال عن التوحيدى وسؤال اللغة للدكتور عبد السلام المسدي .

وفى الليلة الثانية والثلاثين وصف أبو حيان الزمان الذى يعيش فيه على لسان ابن زرعة ولسان الوزير أبى عبد الله العارض ، ما كان بين الأمراء فيما بينهم ، وما كان بين العامة تجاه الأمراء ، وفيما بينهم فقال ووصف بعض البلغاء التجار فقال : لا يوجد الأدب إلا عند الخاصة والسلطان ومدبريه ، وأما أصحاب الأسواق فإنا لا نعدم من أحدهم خلقاً دقيقاً ودينا رقيقاً ، وحرصاً مسرفاً ، وأدباً مختلفاً ، ودناءة معلومة ، ومروءة معدومة وإلغاء اللفيف ، ومجاذبة على الطفيف ، يبلغ أحدهم غاية المدح واللئم فى علق[1] واحد فى يوم واحد مع رجل واحد ، إذا اشتراه منه أو باعه إياه ، إن بايعك مرابحة [2] وخبر بالأثمان ، قوى الإيمان على البهتان ، وإن قلدته الوزن أعنت لسان الميزان ، ليأخذ برجحان أو يعطى بنقصان ؛ وإن كان لك قبله حق لواه محتجاً فى ذلك بسنة السوقيين ، يرضى لك ما لا يرضى لنفسه ، ويأخذ منك بنقد ويعطيك بغيره ، ولا يرى أن عليه من الحق فى المبايعة مثل ما له ؛ إن استنصحته غشك ، وإن سألته كذبك ، وإن صدقته حربك متمردهم صاعقة على المعاملين ، وصاحب سمتهم نقمة على المسترسلين [3] ؛ قد تعاطوا المنكر حتى عرف ، وتناكروا المعروف حتى نسى ، يتمسكون من الملة بما أصلح البضائع ، وينهون

(١) العلق : النفيس من كل شئ . الصحاح ٤ / ١٢٦٠ (علق) .

(٢) يريد بالمرابحة هنا أن يقول المشترى للبائع : أربحك فى هذه السلعة كذا فوق ما اشتريتها به من الثمن أو أن يقول البائع للمشترى ذلك . لسان العرب ٢/ ٤٤٣ (ربح).

(٣) السمت : هيئة أهل الخير وطريقتهم . والمسترسلون : من استرسل إليه إذا انبسط إليها واستأنس ثقة به واتكالاً على ما بينهما من ود وصلة . لسان العرب ١١/ ٢٨٣ (رسل)

عنها كلما عادت بالوضائع [1] ؛ يسر أحدهم بحيلة يرزقها لسلعة ينفقها ، وغيلة لمسلم يحميه الإسلام ، فإذا أحكم حيلته وغيلته غدا قادراً على حرده ، فغر وضر ، وآب إلى منزله [بحطام قد جمعه مغتبطاً بما أباح من دينه] وانتهك من حرمة أخيه ، بعد الذى كان منه حذقاً بالتكسب ، ورفقاً بالمطلب ، وعلماً بالتجارة ، وتقدماً فى الصناعة .

فلما بلغت قراءتى هذا الموضع قال الوزير : إن كان هذا الواصف عنى العامة بهذا القول فقد دخل فى وصفه الخاصة أيضاً ، فوالله ما أسمع ولا أرى هذه الأخلاق إلا شائعة فى أصناف الناس من الجند والكتاب والتناء[2] والصالحين وأهل العلم ؛ لقد حال الزمان إلى أمر لا يأتى عليه النعت ، ولا تستوعبه الأخبار ، وما عجبى إلا من الزيادة على مر الساعات ، ولو وقف لعله كان يرجى بعض ما قد وقع اليأس منه ؛ وأعترض القنوط دونه .فقال ابن زرعة وكان حاضراً : هذا لأن الزمان من قبل كان ذا لبوس من الدين رائع ، وذا بد من السياسة بسيطة ، فأخلق اللبوس [وبلى ، بل تمزق] وفنى ، وضعفت اليد بل شلت وقطعت ، ولا سبيل إلى سياسة دينية لأسباب لا تتفق إلا بعلل فلكية ، وأمور سماوية ، فحينئذ يكون انقياد الأمور الجانحة لها ، فى مقابلة حران الأمور الجامحة عنها ، وذلك منتظر فى وقته ، وتمنى ذلك قبل إبانة وسواس النفس ، وخور الطباع ، و الناس أهداف لأغراض الزمان ومقلبون بحوادث الدهور ، ولا فكاك من المكاره

(١) الوضائع : الذال القوم . لسان العرب ٨ / ٣٩٩ (وضع) .

(٢) التناء : واحده تانئ وهو الدعقان . القاموس المحيط ١ / ٩)تنا) . والدعقان الناجر . تاج العروس ٦/ ٣٥٠ (دهق) .

، ولا اعتلاق لهم بالمحاب إلا بالدواعى والصوارف التى لا سبيل لهم إلى تحويل هذه إلى هذه ، ولا إلى تبديل هذه بهذه ، واختيارهم للتوجه إلى محبوبهم أو الإعراض عن مكروههم ضعيف طفيف ، ولولا ذلك لكانت الحسرات تزول فى وقت ما يراد ، والغبطة تملك بإدراك ما يتمنى ، وهذا شأو محكوم به بقوة النفس ، غير مستيقظ إليه بقوة الحس .

فقال الوزير : أحسنت يا أبا على فى هذا الوصف ، " وإن نفثك ليدل على أكثر من ذلك " ، ولو كان البال ظافراً بنعمة ، و الصدر فارغاً من كربة ، لكنا نبلغ من هذا الحديث مبلغاً نشفى به غليلنا قائلين ونشفى به مستمعين ، ولكنى قاعد معكم وكأنى غائب ، بل أنا غائب من غير كاف التشبيه ، والله ما أملك تصرفى ولا فكرى فى أمرى ، أرى واحداً فى فتل حبل ، وأخر فى حفر بئر ، وآخر فى نصب فخ ، وآخر فى دس حيلة ، وآخر فى تقبيح حسن ، وآخر فى شحذ حديد ، وآخر فى تمزيق عرض ، وآخر فى اختلاق كذب ، وآخر فى صدع ملتئم ، وآخر فى حل عقد ، وآخر فى نفث سحر ، وناري مع صاحبى رماد ، وريحه علىّ عاصفة ، ونسيمى بينى وبينه سموم ، ونصيبى منه هموم وغموم ، وإنى أحدثكم بشئ تعلمون به صدقى فى شكواى ، وتقفون منه على تفسخى تحت بلواى ، ولولا أنى أطفئ بالحديث لهباً قد تضرم صدرى به ناراً ، واحتشى فؤادى منه أواراً ؛ لما تحدثت به ، ولو استطعت طيه لما نبست بحرف منه ، ولكن كتمانى للحديث أنقب لحجاب القلب من العتلة لسور القصر .

دخلت منذ أيام فوصلت إلى المجلس ، فقال لى قد أعدت الخلعة

فالبسها على الطائر الأسعد ، فقلت أفعل ، وفى نذكرنى أشياء لابد من ذكرها وعرضها .

فقال : هات ، فقلت : يتقدم بكذا وكذا ، ويفعل كذا وكذا . فقال : عندى جميع ذلك ، امض هذا كله ، وأصنع فيه ما ترى ، وما فوق يدك يد ، ولا عليك لأحد اعتراض ؛ فانقلبت عن المجلس إلى زاوية فى الحجرة ، وفيها تحدرت دموعى ، وعلا شهيقى ، وتوالى نشيجى ، حتى كدت أفتضح فدنا منى بعض خدمى من ثقاتى ، فقال : ما هذا ؟ الناس وقوف ينتظرون بروزك بالخلعة المباركة والتشريف الميمون ، وأنت فى نوح وندم؟؟ فقلت : تنح عنى ساعة حتى أطفئ نار صدرى ، وإنما كان ذلك العارض لأنى كنت عرضت على صاحبى تذكرة مشتملة على أشياء مختلفة ، فأمضاها كلها ، ولم يناظرنى فى شئ منها ، ولا زادنى شيئاً فيها ، ولا ناظرنى عليها ، ولعلى قد بلوته بها ، وأخفيت مغزاى فى ضمنها ، فخيل إلىّ بهذه الحال أن غيرى يقف موقفى ، فيقول فىّ قولاً مزخرفاً ، وينسب إلىّ أمراً مؤلفاً ، فيمضى ذلك أيضاً له كما أمضاه لى ، فوجدتنى بهذا الفكر الذى قد فتق لى هذا النوع من الأمر كراقم على صفحة ماء ، أو كقابض فى جوٍ على قطعة من هواء ؛ أو كمن ينفخ فى غير فحم ، أو يلعب فى قيد ، ولقد صدق الأول حيث قال :

وإن امرأ دنياه أكبر همه ... لمشمسك منها بحبل غرور

غير أنى أذكر لكم ما عن لى من هذا الأمر .

اعلموا أنى ظننت أن ما نظمه الماضى - رحمه الله - وأصلحه ، وبناه

وقومه ، ونسجه ونوقه لا يستحيل فى ثلاثين سنة ولا خمسين سنة ، وأن الحال تدوم على ذلك المنهاج ، وتستمر على ذلك السياج ، ونكون قد أخذنا بطريق من السعادة ، وبلغنا لأنفسنا بعض ما كنا نسلط عليه التمنى من الإرادة فنجمع بين علو المرتبة ، وشرف الرياسة ، ونيل اللذة ، وإدراك السرور ، وإصطناع العرف ، وكسب الثناء ، ونشر الذكر ، وبعد الصيت ، فعاد ذلك كله بالضد ، وحال إلى الخلاف ، ووقف على الفكر المضنى ، والخوف المقلق ، واليأس الحى ، والرجاء الميت وما أحسن ما قال القائل :

أظمتنى الدنيا فلما جئتها مستسقياً مطرت علىّ مصائباً

فقال له ابن زرعة : إن الأمور كلها بيد الله ، ولا يستنجز الخير إلا منه ، ولا يستدفع الشر إلا به ، فسله جميل الصنع وحسن النية وانو الخير ، وبث الإحسان ، وكل أعداءك إلى ربك الذى إذا عرف صدقك وتوكلك عليه فلل حدهم ، وعفر خدهم ، وسبح الفرات إلى جمرتهم حتى يطفئها ، وسلط الأرضة على أبدانهم حتى تقرضها ، وشغلهم بأنفسهم ، وخالف بين كلمتهم ، وصدع شمل جميعهم ، وردهم إليك صاغرين ضارعين ، وعرضهم عليك خاضعين ، وما ذلك على الله بعزيز ، وإن الله مع المحسنين على المسيئين .

قال : والله لقد وجدت روحاً [1] كثيراً بما قلت لكم وما سمعت منكم ، وأرجو أن الله يعين المظلوم ، ويهين الظالم . قد تمطى الليل ، وتغورت النجوم ، وحن البدن إلى الترفه.

(١) الروح بفتح الراء والراحة كلاهما بمعنى واحد . الصحاح ١/ ٣٢٣ (روح) .

فإذا شئتم [1] فانصرفنا متعجبين [2].

فهذه صفات واضحة أوضحت ما كان عليه هذا الزمان من اختلاف ودهاء بين الأمراء ، وأخلاق العامة مختلفة تنتقل من السئ إلى الأسوأ فلا أخلاق ولا أمانة ، ولم تكن نيسابور بأفضل من ذلك بل يقول عنها " حدثنى شيخ من الصوفية فى هذه الأيام قال : كنت بنيسابور سنة سبعين وثلثمائة ، وقد اشتغلت خرسان بالفتنة ، وتبلبلت دولة آل سامان بالجور وطول المدة ، فلجأ محمد بن إبراهيم صاحب الجيش إلى قاين [3] وهى حصنه ومعقله ، وورد أبو العباس صاحب جيش آل سامان نيسابور بعدة عظيمة ، وعدة عميمة ، وزينة فاخرة ، وهيئة باهرة ، وغلا السعر ، وأخيفت السبل ، وكثر الإرجاف ، وساءت الظنون ، وضجت العامة ، والتبس الرأى ، وانقطع الأمل ، ونبح كلبٌ كَلِبٌ من كل زاوية ، وزأر كل أسد من كل أجمة ، وضج كل ثعلب من كل تلعة " [4].

وعلى هذا يمكننا القول بأن حياة أبى حيان - وخاصة فى تأليف هذا الكتاب - كانت ببغداد تموج بالاختلاف المذهبى ، والاختلاف الفكرى ، والاختلاف الجنسى بين العرب وغيرهم ، فضلاً عن الاضطراب السياسى لاختلاف الحكام وبحث كل واحد منهم عن الوسيلة التى يحل بها محل الأمير أو الوزير والعامة بين مظلوم ، وموصول ، ومن يبحث له عن طريق

(١) هذه الجملة أريد بها الإيذان بالإنصراف .

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٣ / ٦١ - ٦٦ .

(٣) قاين : بلد قريب من طبس بين نيسابور وأصبهان . تاج العروس ٩/ ٣١٧ (قان).

(٤) الإمتاع والمؤانسة ٣ / ٩١ - ٩٢ .

، ولم تكن نيسابور بأفضل من ذلك حالاً . .

العرب والعربية ومكانتهما عند أبى حيان :

فى الليلة السادسة افتتح الوزير الجلسة بسؤال قال : أتفضل العرب على العجم أم العجم على العرب ؟ فقال أبو حيان " قبل أن أحكم بشئ من تلقاء نفسى أروى كلاماً لابن المقفع وهو أصيل فى الفرس عريق فى العجم [1] ... أقبل علينا ابن المقفع فقال : أى الأمم أعقل ؟ فذكر له الجالسون الفرس ، والروم ، والصين ، والترك ، و الهند ، والزنج ، وهو يقول : لا ويصف كل أمة من هذه الأمم[2] قال : فرددنا الأمر عليه . قال العرب .

فتلاحظنا وهمس بعضنا إلى بعض ، فغاظه ذلك منا ، وامتقع لونه ، ثم قال : كأنكم تظنون فىّ مقاربتكم ، فوالله لوددتُ أن الأمر ليس لكم ولا فيكم ، ولكن كرهت إن فاتنى الأمر أن يفوتنى الصواب ، ولكنى لا أدعكم حتى أبين لكم لم قلت ذلك . لأخرج من ظنة المداراة ، وتوهم المصانعة .

إن العرب ليس لها أول تؤمه ، ولا كتاب يدلها ، أهل بلد قفر ووحشة من الإنس ، احتاج كل واحد منهم فى وحدته إلى فكره ونظره وعقله ، وعلموا أن معاشهم من نبات الأرض فوسموا كل شئ بسمته ، ونسبوه إلى جنسه وعرفوا مصلحة ذلك فى رطبه ويابسه ، وأوقاته وأزمنته وما يصلح منه فى الشاة والبعير ، ثم نظروا إلى الزمان واختلافه فجعلوه

(١) الإمتاع والمؤانسة ١ / ٧٠ .
(٢) السابق ١ / ٧١ .

ربيعياً وصيفياً ، وقيظياً وشتوياً ، ثم علموا أن شربهم من السماء ، فوضعوا لذلك الأنواء ، وعرفوا تغير الزمان فجعلوا له منازله من السنة ؛ واحتاجوا إلى الانتشار فى الأرض ، فجعلوا نجوم السماء أدلة على أطراف الأرض وأقطارها ، فسلكوا بها البلاد ، وجعلوا بينهم شيئاً يتناهون به عن المنكر ، ويرغبهم فى الجميل ، ويتجنون به على الدناءة ، ويحضهم على المكارم ؛ حتى أن الرجل منهم وهو فى فج من الأرض يصف المكارم فما يبقى من نعتها شيئاً ، ويسرف فى ذم المساوئ فلا يقصر ، ليس لهم كلام إلا وهم يحاضون به على اصطناع المعروف . ثم حفظ الجار ، وبذل المال ، وابتناء المحامد ، كل واحد منهم يصيب ذلك بعقله ، ويستخرجه بفطنته وفكرته ، فلا يتعلمون ، ولا يتأدبون ، بل نحائز- أى طباع - مؤدبة ، وعقول عارفة ، لذلك قلت لكم : إنهم أعقل الأمم ؛ لصحة الفطرة ، واعتدال البنية وصواب الفكر ، وذكاء الفهم " [1] .

ويضرب لذلك المثل فيقول من البيان واللغة والاعتزاز بالنفس " قيل لرجل منهم فى يوم شات وهو يمشى فى سمل - أى ثياب خلقة - أما تجد البرد يا أخا العرب ؟ فقال : أمشى الخيزلى- أى مشية فيها تثاقل وانفكاك- ويكفينى حسبى والفارسى لا يحسن هذا النمط ، ولا يذوق هذا المعنى ، ولا يحلم بهذه اللطيفة ، وكذلك الرومى ، و الهندى ، وغيرهما من جميع العجم " [2] .

(١) الإمتاع والمؤانسة ١ / ٧٢ .
(٢) السابق ١ / ٨٣ .

وفى معرض ردّه على كتاب الجيهانى [1] الذى ذم العرب ووصفهم بالجهالة والحطة أوضح أبو حيان أنهم متحضرون فى باديتهم ، وعندما آلت لهم الحضارة لم يتخلوا عن بدويتهم ويعنى أخلاق البدو من الشجاعة والكرم حيث يقول " ومما يدل على تحضرهم فى باديتهم ، وتبدّيهم فى تحضرهم ، وتحليهم بأشرف أحوال الأمرين أسواقهم التى لهم فى الجاهلية مثل دومة الجندل بقرى كلب وهى النصف بين العراق والشام ... ثم ينتقلون إلى سوق هجر ... ثم يرتحلون نحو عمان ... ثم يرتحلون فينزلون إرم وقرى الشحر ... ثم يرتحلون فينزلون عدن أبين ومن سوق عدن تشترى اللطائم وأنواع الطيب ولم يكن فى الأرض أكثر طيباً ولا أحذق صناعاً للطيب من عدن ، ثم يرتحلون فينزلون الراية من حضرموت ومنهم من يجوزها ويرد صنعاء فتقوم أسواقهم بها ، ومنها كانت تجلب آلة الخرز ، والأدم ، والبرود ، وكانت تجلب إليهم من معافر ، وهى معدن البرود والحبر ، ثم يرتحلون إلى عكاظ ، وذى المجاز فى الأشهر الحرم ، فتقوم أسواقهم بها ، فيتناشدون ، ويتحاجون ، ويتحادون ، ومن له أسير يسعى فى فدائه ، ومن له حكومة ارتفع إلى الذى يقوم بأمر الحكومة من بنى تميم وكان آخرهم الأقرع بن حابس ، ثم يقفون بعرفة ، ويقضون ما عليهم من مناسكهم ثم يتوجهون إلى أوطانهم .

وهذه الأسواق كانت تقوم طول السنة فيحضرها من قرب من العرب

(١) محمد بن أحمد بن نصر الجيهانى أبو عبد الله أديب كاتب من الوزراء تولى الوزارة للسامانية بخارى من آثاره كتاب الرسائل - المسالك و الممالك ت . ٣٣٠هـ . معجم المؤلفين . تأليف رضا كحالة ٢/ ١٦٥ ، دار إحياء التراث - لبنان.

ومن بعد ، هذا حديثهم ، وهم همل لا عز لهم إلا السؤدد ، ولا معقل لهم إلا السيف ، ولا حصون إلا الخيل ، ولا فخر إلا البلاغة .

ثم لما ملكوا الدور والقصور والجنان والأودية والأنهار والمعادن و القلاع والمدن والبلدان والسهل والجبل والبر والبحر ، لم يقعدوا عن شأو من تقدم بآلاف السنين ، ولم يعجزوا عن شئ كان لهم ، بل أبروا عليهم وزادوا ، وأغربوا وأفادوا وهذا الحكم ظاهر معروف ، وحاضر مكشوف ، ليس إلى مرده سبيل ، ولا لجاحده ومنكره دليل . فليستحى الجيهانى . بعد هذا البيان والكشف والإيضاح بالإنصاف من القذع والسفه اللذين حشا بهما كتابه ، وليرفع نفسه عما يشين العقل ، ولا تقبله حكام العدل "[1].

ويوضح فضل لغة العرب على غيرها من اللغات فى أصواتها ، وبنيتها ، وتركيبها وتركيبها ، وفى مجازها واستعاراتها ، وكناياتها فيقول " وسعة لغتها وتصاريف كلامها فى أسمائها وأفعالها وحروفها ، وجولانها فى اشتقاقاتها ، ومآخذها البديعة فى استعاراتها ، وغرائب تصرفها فى اختصاراتها ، ولطف كناياتها فى مقابلة تصريحاتها وفنون تبجحها فى أكناف مقاصدها ، وعجب مقاربتها فى حركات لفظها ..... وقد سمعنا لغات كثيرة - وإن لم نستوعبها - من جميع الأمم ، كلغة أصحابنا العجم ، والروم ، والهند ، والترك ، وخوارزم ، وصقلاب ، وأندلس ، والزنج ، فما وجدنا لشئ من هذه اللغات تصوغ العربية أعنى الفرج التى

(١) الإمتاع والمؤانسة ١ / ٨٣ - ٨٥ .

فى كلماتها ، والفضاء الذى نجده فى حروفها ، والمسافة التى بين مخارجها ، والمعادلة التى نذوقها فى أمثلتها ، والمساواة التى لا تجحد فى أبنيتها ، وإذا شئت أن تعرف حقيقة هذا القول ، وصحة هذا الحكم ، فالخط عرض اللغات الذى هو بين أشدها تلابساً وتداخلاً ، وتسرادفاً وتعاظلاً وتعسّراً وتعوصاً ، وإلى بعدها مما هو أسلس حروفاً ، وأرق لفظاً ، وأخف اسما ، وألطف أوزاناً ، وأحضر عياناً ، وأحلى مخرجاً ، وأجلى منهجاً ، وأعلى مدرجاً ، وأعدل عدلاً ، وأوضح فضلاً ، وأصح وصلاً إلى أن تنزل إلى لغة بعد لغة ، ثم تنتهى إلى العربية ، فإنك تحكم بأن المبدأ الذى أشرنا إليه فى العوائص والأغماض ، وسرى قليلاً قليلاً حتى وقف على العربية فى الإفصاح والإيماض »[1] .

الكاتب والكتابة ومقوماتها وأثرهما فى اللغة :

الكلمة بشقيها المسموع والمكتوب هى تعبير عن رمز دلالى تعارف عليه المجتمع ، فالكتابة هى الصورة المرئية للكلمة المسموعة ، فإذا انحرفت الصورة عن الأصل ضللت الأصل ، وشوهت المعنى ، ولذلك يجب فى الكاتب أن يكون على دراية كاملة بعلوم اللغة وغيرها من العلوم ، وعن المقومات التى يجب أن يتحلى بها الكاتب يقول أبو حيان " لا يكون كاملاً، ولا لاسمه مستحقاً ، إلا بعد أن ينهض بهذه الأثقال ، ويجمع إليها أصولاً من الفقه مخلوطة بفروعها ، وآيات من القرآن مضمومة إلى سعته فيها ، وأخباراً كثيرة مختلفة فى فنون شتى لتكون عدّة

(١) الإمتاع والمؤانسة ١ / ٧٦ - ٧٨ .

عند الحاجة إليها ، مع الأمثال السائرة ، والأبيات النادرة ، والفقر البديعة ، والتجارب المعهودة، والمجالس المشهودة ؛ مع خط كتبر مسبوك ، ولفظ كوشى محوك ؛ ولهذا عزّ الكامل فى هذه الصناعة حتى قال أصحابنا : ما نظن أنه اجتمع هذا كله إلا لجعفر بن يحى [1] فإن كتابته كانت سواديّة ، وبلاغته سحبانية ، وسياسته يونانية وآدابه عربية، وشمائله عراقية » [2] .

ففى هذا النص يوضح أبو حيان أن الكاتب يجب أن يكون على علم بالعلوم وفروعها فى اللغة والفقه والتفسير والآداب ، وأن يكون ذا تجربة ، وشهّاداً للمجالس ، إضافة إلى أن ينعم بخط جميل ، ولفظ محكم كالثوب الذى يحاك على قدّ لابسه ، وعن هذا يقول ابن قتيبة " وليست كتبنا هذه لمن لا يتعلق من الإنسانية إلا بالجسم ، ومن الكتابة إلا بالاسم ، ولم يتقدم من الأداة ، إلا بالقلم والدواة ، ولكنها لمن شدا شيئاً من الإعراب فعرف الصدر- الفعل- والمصدر ، والحال والظرف ، وشيئاً من التصاريف، وانقلاب الياء عن الواو، والألف عن الياء، وأشباه ذلك »[3].

وأما عن الخط الجيد فيقول الصولى " سئل بعض الكتاب عن الخط متى يستحق أن يوصف بالجودة فقال : إذا اعتدلت أقسامه ، وطالت ألفه ولامه ، واستقامت سطوره ، وضاهى صعوده حدوره ، وتفتحت عيونه ،

(١)جعفر بن يحى بن خالد البرمكى وزير الرشيد العباسى توفى ١٨٧هـ وهو أحد الموصوفين بفصاحة المنطق وبلاغة القول جمع بين الهدوء والتسهل والجزالة والحلاوة والإفهام المغنى عن الإعادة وكان كاتباً بليغاً يحتفظ الكتاب بتوقيعاته انظر الأعلام ٢ / ١٣٠ .

(٢) الإمتاع والمؤانسة / ٩٩- ١٠٠ .

(٣) أدب الكاتب لابن قتيبة ص٩ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد طبع المكتبة التجارية بمصر سنة ١٩٦٣م .

ولم تشبه راؤه نونه ، وأشرق قرطاسه ، وأظلمت أنقاسه ، ولم تختلف أجناسه ، وأسرع إلى العين تصوره ، وإلى العقول ثمره ، وقدرت فصوله ، واندمجت وصوله ، وتناسب رقيقه وجليله»[1] وفى موطن آخر يوضح الصولى من خلال أبيات شعرية أن حسن الخط يعين على الوصول للمعنى، وكذلك النطق الصحيح،

وإذا وسوم فى كتابك لم تدع شكا لمعتسف ولا لمفكر
تنبيك عن رفع الكلام وخفضه والنصب فيه لحاله والمصدر[2]

بل إن أبا حيان يوضح أن الكاتب لابد أن يكون على علم بالحساب، ويرى أن الحساب والبلاغة والكتابة متكاملون حيث يقول " ألا تعلم أن أعمال الدواوين التى ينفرد أصحابها فيها بعمل الحساب فقيرة إلى إنشاء الكتب فى فنون ما يصفونه ويتعاطونه ، بل لا سبيل لهم إلى العمل إلا بعد تقدمة هذه الكتب التى مدارها على الإفهام البليغ والبيان المكشوف ، والاحتجاج الواضح ، وذلك يوجد من الكاتب المنشئ ... فمنها ديوان الجيش ، وديوان بيت المال وديوان التوقيع والدار ، وديوان الفض ، وديوان النقد والعيار ودار الضرب .. يلزم كاتب الحساب أن يعرف وجوه الأموال حتى إذا جباها وحصلها عمل الحساب أعماله فيها ، فلا يمكنه أن يجبى إلا بالكتب البليغة ، والحجج اللازمة ، واللطائف المستعملة "[3].

(١) أدب الكتاب للصولى ص ٥٤ تصحيح محمد بهجة الأثرى دار الباز بمكة المكرمة سنة ١٣٤١هـ .
(٢) أدب الكتاب للصولى ص ٤٩ .
(٣) الإمتاع والمؤانسة ١ / ٩٧ _ ٩٨ .

اللغة المسموعة واللغة المكتوبة :

بعد أن أورد أبو حيان دور الكتابة فى المعنى ، وأنها هى الصورة المرئية للفظ المسموع أوضح أن اللغة المسموعة لها خصائص وصفات تختلف عن اللغة المكتوبة حيث يقول : " وإن كان الرجوع فيه إلى الكتب الموضوعة من أجله كافياً ، فليس ذلك مثل البحث عنه باللسان ، وأخذ الجواب عنه بالبيان ، والكتاب موات ، ونصيب الناظر فيه منزور ، وليس كذلك المذاكرة والمناظرة ، والمواتاة ، فإن ما ينال من هذه أغض وأطرأ ، وأهنأ وأمرأ "[1].

أبو حيان فى هذا النص يوضح لنا أن اللغة المكتوبة لا يمكن أن تكون كاللغة المسموعة فى التأثير والعاطفة والتفاعل فيصف اللغة المكتوبة بأنها موات ، وأن اللغة المسموعة من المذاكرة والمناظرة والمواتاة أغض وأطرأ وأهنأ وأمرأ، وعن ذلك يقول " جسبرسن " الكلمة اللغوية فى وجودها القاموسى كالعملة فى خزانة المصرف لها قوة التعامل ، ولكنها لا تمثل تفاعلاً واقعياً ، أما الكلمة المنطوقة فى وجودها الكلامى فهى عملة نشيطة لها قوة شرائية واقعية ، ولذلك يحدث لها ما يحدث للنقود الكثيرة التداول فى أيدى الجماهير من تغيير وتبديل وتحريف ، ولكل هذا أثره على اللغة على مرّ الزمان "[2] كما أن اللغة المكتوبة تسقط من حسابها كثيراً من الأمور التى لها أثرها على الدلالة مثل " عامل

(١) الإمتاع والمؤانسة ٣ / ١٠٦ .
(٢) فى علم اللغة العام د/ عبد الصبور شاهين ص ٤٨ طبع مؤسسة الرسالة سنة ١٩٨٤م .

السرعة ، والزمن ، والبعد الجغرافى ، واختلاف النطق حسب الأفراد واللهجات ، وكل ذلك يؤدى إلى طائفة من الاختلافات فى أحوال النطق للصوت الواحد ، بالإضافة إلى أن إنتاج الصوت اللغوى إلى حرف مكتوب يُصبح رمزاً ، ويسقط من حسابه كل هذه الاختلافات »(١).

ويوضح أبو حيان فى موقع آخر الفرق بين المسموع والمقروء ، بأن المسموع كالطائر المحلق فى السماء ، والمقروء كالطائر القريب من الأرض ، وأن المسموع يدع للخيال مجالاً وللحس تفاعلاً تبعاً للمتحدث والحديث والموقف واللفظ المكتوب دون ذلك .

حيث يقول " فإن الكلام إذا مرَّ بالسمع حلَّق ، وإذا شارفه البصر بالقراءة من كتاب أسفَّ ، والمحلق بعيد المنال ، والمُسِفّ حاضر العين ، والمسموع إذا لم يملكه الحفظ تذكر منه الشئ بعد الشئ بالوهم الذى لا انعقاد له ، والخيال الذى لا معرَّج عليه » (٢).

ويوضح أبو حيان أن السمع والبصر من أخص إحساسات النفس حيث يقول " ومما يجب أن يعلم أن السمع والبصر أخص بالنفس من الإحساسات الباقية ، لأنهما خادما النفس فى السر والعلانية ، ومؤنساها فى الخلوة ، ومدادها فى النوم واليقظة وليست هذه الرتبة لشئ من الباقيات ، بل الباقيات آثارها فى الجسد الذى هو مطية الإنسان »(٣) ولكن

(١) الكلمة دراسة لغوية ومعجمية د/ حلمى خليل ص ٧٦ طبع دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية سنة ١٩٩٨م .
(٢)الإمتاع والمؤانسة ١ / ٩٥ _ ٩٦ .
(٣) السابق٢ / ٨٣ .

أبا حيان يوضح أن أثر المسموع فى النفس يختلف باختلاف الأداء طبقا لتمام الأداء وواقع النفس كانت له لذاذة ، وكأنه لم يسمعه من قبل ، وإذا كان الأداء كدراً لم يكن له لذاذة أو حتى تفهُّم ولو كان بليغاً حيث يقول " إن المسموع الواحد إنما هو بالحس الواحد ، وربما كان الحس الواحد- أيضاً - غليظاً أو كدراً فلا يكون لنيله اللذة به بسط ونشو ولذاذة ، وكذلك المسموع ربما لم يكن فى غاية الصفاء على تمام الأداء بالتقطيع الذى هو نفس فى الهواء ، فلا تكون أيضاً إنالته للذة على التمام والوفاء ، فإذا أُتى المسموع - أعنى توحد النغم بالنغم قوى الحس المدرك ، فنال مسموعين بالصناعة ، ومسموعاً واحداً بالطبيعة ، والحس لا يعشق المواحدة ، والمناسبة والاتفاق إلا بعد أن يجدها فى المركب ، كما أن العقل لا يعشق إلا بعد أن ينالها فى فضاء البسيط ، فكلما قوى الحس باستعماله إلتذ صاحبه بقوته حتى كأنه يسمع ما لم يسمع بحس أو أكثر ، وكما أن الحس إذا كان كليلاً كان الذى يناله كليلاً ، كذلك الحس إذا كان قوياً كان ما يناله قوياً »(١) .

وفى موطن آخر يوضح أن الكلام يكون شهياً له لذاذة إذا كان من خطرات العقل وخدمته النغمات الموافقة والأسلوب الجزل ، والمأخذ السهل ، ومعرفة الوصل والوقف ، والتفريق بين النثر والسجع حيث يقول ، فإنه شهى سيَّما إذا كان من خطرات العقل قد خُدم بالصواب فى نغمه ناغمة ، وحروف متقاومة ، ولفظ عذب ، ومأخذ سهل ، ومعرفة بالوصل

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ٨٢ .

والقطع ، ووفاء بالنثر والسجع ، وتباعد من التكلف الجافى ، وتقارب فى التطلف الخافى ... ... والحس شديد اللهج بالحادث والمحدث والحديث[1] " .

ويوضح أن اللغة المنطوقة هى من القوالب اللفظية التى تستمد معناها من الاستعمال المصطلح عليه ، على نظام وقواعد معينة ، مع مراعاة المتكلم من لهجات وعادات وتقاليد ، وكذلك مراعاة المتحدث إليهم والموقف ، ولا يحكم ذلك ويخرجه فى صورة متقبلة سوى العقل ، ومع ذلك قد يستعصى الكلام ويحدث العى ، ويتوه الكلام حيث يقول " الكلام صلف تياه لا يستجيب لكل إنسان ، ولا يصحب كل لسان ، خطره كثير ، ومتعاطيه مغرور ، وله أرن - نشاط - كأرن المُهر ، وإباء كإباء الحرون ، وزهو كزهو الملك ، وخفق كخفق البرق ، وهو يستسهل مرة ، ويتعسر مراراً ، ويذل طوراً ، ويعز أطواراً ، ومادته من العقل ، والعقل سريع الحؤول ، خفى الخداع ، وطريقه على الوهم ، والوهم شديد السيلان ، ومجراه اللسان ، واللسان كثير الطغيان ؛ وهو مركب من اللفظ اللغوى ، والصوغ الطباعى ، والتأليف الصناعى ، والاستعمال الاصطلاحى ، ومستملاه من الحجا ودريه بالتمييز ونسجه بالرقة ، والحجا فى غاية النشاط ويهذا البون يقع التباين ، ويتسع التأويل ، ويجول الذهن ، وتتمطى الدعوى ، ويُفزع إلى البرهان" [2] .

(١) الإمتاع والمؤانسة ١ / ٢٢ - ٢٣ .

(٢) السابق ١ / ٩- ١٠

ويوضح أبو حيان فى صورة مختصرة ما يكون من قبيل الأذن ، وما يكون من قبيل البصر حيث يقول " لكن الفرق بين السمع والبصر فى أبواب كثيرة ألطفها أن أشكال المسموع مركبة فى بسيط ، وأشكال المبصر مبسوطة فى مركب " [1] وأبو حيان فى هذا النص يوضح أن البسيط فى السمع يكون مركباً لعلاقة المتحدث بالسامع ، وللأمور العرفية " فالعرفية الخاصة مركبة والضرورية المطلقة بسيطة " [2] وكل مركب له اعتباران : الكثرة والوحدة ، فالكثرة باعتبار أجزائه ، والوحدة باعتبار هيئته الحاصلة فى تلك الكثرة "[3] .

والمركب من الكلام هو ما يحسن السكوت عليه [4] ولذلك عُد الواصل إلى الأذن ولو كان بسيطاً فهو مركب ، لأن العادة العرفية والعلاقة بين المتكلم والسامع ، يكتفى فيها المتكلم بكلمة ، أو بجزء منها ، والسامع يفهم ما يريد أو أن الموقف والأحداث المصاحبة له تضفى على اللفظ معانٍ أخر لا تفهم منه مخطوطاً أو مكتوباً . وقد أورد الكفوى " ويراد بالمفرد فى باب الكلمة ما يقابل المركب [5] وبين التركيب والبسيط عموم وخصوص من وجه[6] ، " لأن التركيب لا يكون إلا من بسائط

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ٨٤ .

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى ٣ / ١٥ تحقيق د / لطفى عبد البديع ، د / عبد المنعم محمد حسين طبع الهيئة العامة للكتاب بمصر سنة ١٩٧٢م .

(٣) الكليات لأبى البقاء الكفوى ٤ / ٢٢٨ تحقيق د / عدنان درويش ، ومحمد المصرى طبع دار الكتاب الإسلامى بمصر سنة ١٩٩٢م .

(٤) السابق ٤ / ٢٢٨ . (٥) الكليات لأبى البقاء الكفوى ٤ / ٢٢٩ .

(٦) انظر كشاف اصطلاحات الفنون ١ / ١٨٩ .

تتصفر أجزاؤها وتتماس متفاعلة حتى تستقر على كيفية (١)» وعندما يقول أبو حيان أن أشكال المبصر مبسوطة فى مركب ، أى أن الكلمة فى المركب لا يظهر معناها إلا بالسياق ، بل إن المركب لا يفهم كاملاً إلا بسياق الكلام السابق واللاحق ، وعلى هذا فهو مركب فى الصورة بسيط فى التحصيل والفهم .

الحاجة إلى اللغة :

لا شك أن اللغة هى الوسيلة الأساسية فى تواصل الناس ، وفى قضاء حوائجهم ،وبدونها يكون الناس فى عزلة أو يحتاجون إلى وقت طويل لتوصيل ما يريدون ، وعليه فحاجة الناس إليها أكثر من حاجتهم إلى الطعام الذى يحفظ الحياة وإن كان العامة يهمهم معرفة ما يقضى حوائجهم فى الحياة فإن الخاصة يجب أن يعرفوا ضروبها من أصوات وبنية وتركيب ودلالة وعن حاجة اللغة أورد أبو حيان فى لقاء للعلماء عند عبد الملك بن مروان أن عبد الملك بن مروان قال : حاجة الناس إلى ما يقوّم ألسنتهم يماثل حاجتهم إلى الطعام حيث يقول " اجتمعنا عند عبد الملك بن مروان فقال : أىُّ الآداب أغلب على الناس ؟ فقلنا فأكثرنا فى كل نوع ؛ فقال عبد الملك : ما الناس إلى شئ أحوج منهم إلى إقامة ألسنتهم التى بها يتعاورون القول ، ويتعاطون البيان ، ويتهادون الحكم ، ويستخرجون غوامض العلم من مخابئها ، ويجمعون ما تفرق منها ؛ إن الكلام فارق للحكم بين الخصوم ، وضياء يجلو ظلم الأغاليط ، وحاجة

(١) كشاف اصطلاحات الفنون ٣ / ١٥ .

الناس إليه كحاجتهم إلى مواد الأغذية "(١).

فهو يوضح أن الحياة إن كانت تُحفظ بالغذاء ، فإنها لا تقضى حاجاتها بدون اللغة ، وما لم يتفاعل مع الحياة والأحياء فهو ميت . وأداة التفاعل بين الأحياء هى اللغة . وصدق الشاعر إذ يقول :

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

ولهذا يؤكد أبو حيان حاجتنا إلى اللغة فيقول " إذا كانت الأغراض المعقولة والمعانى المدركة لا يوصل إليها إلاّ باللغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروف ، أفليس قد لزمت الحاجة إلى معرفة اللغة "(٢).

ويوضح أبو حيان الوسيلة التى يمكن للإنسان أن يمتن لغته حتى تُصبح له سجية ، ويصبح فيها كالشاعر يقرض الشعر بطبعه دون العودة إلى علم العروض حيث يقول " إن من يتكلم بالإعراب والصحة ولا يلحن ، ولا يخطئ ، ويجرى على السليقة الحميدة ، والضريبة السليمة ، قليل أو عزيز ، وإن الحاجة شديدة لمن عدم هذه السجية ، وهذا المنشأ إلى أن يتعلم النحو ، ويقف على أحكامه ، ويجرى على منهاجه ، ويفى بشروطه فى أسماء العرب ، وأفعالها ، وحروفها ، وموضوعاتها ، ومستعملاتها ، ومهملاتها ؛ ومتى اتفق إنسان بهذه الحلية ، وعلى هذا النَّجار ، فلعمرى إنه غنى عن تطويل النحويين ، كما يستغنى قارض الشعر بالطبع عن علم العروض "(٣).

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ١٤٤ .
(٢) السابق ١ / ١١١ .
(٣) السابق ١ / ١٠٦ - ١٠٧ .

ولهذا يوضح فى موضع آخر أن النحو عند العرب فطرة وسليقة ، والنحو عند غيرهم فطنه وتعلم حيث يقول " قال أبو سليمان : نحو العرب فطرة ، ونحونا فطنه ، فلو كان إلى الكمال سبيل لكانت فطرتهم لنا مع فطنتنا ، أو كانت فطنتنا لهم مع فطرتهم "(١).

وإن كان العامة فى حاجة إلى اللغة فى تسيير حياتهم ، وقضاء حوائجهم فإن الخاصة من العلماء يكون نقص النحو عندهم عيباً ولهذا يصف أبو حيان أبا إسحاق الصابى " وإنما ينقم عليه قلة نصيبه من النحو "(٢) أى أن عيبه أنه لا يجيد النحو وضروبه .

وعن ذلك يقول الدكتور تمام حسان " إذا كان النحو صناعة فهو بالضرورة بنية مجردة ذات علاقات داخلية عضوية ، وإذا كانت المعرفة تكتسب بمداومة الاطلاع ، ويتوقف الوصول إليها بتوقف هذا الاطلاع ، فإن الصناعة تكتسب بالتدريب حتى تصبح ملكة فى النفس تتمكن بالتطبيق المستمر ، ولكنها لا تزول بعدمه فيما يبدو "(٣) .

وعن هذا يقول ابن خلدون " إن حصول ملكة اللسان العربى إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب ، حتى يرتسم فى خياله المنوال الذى نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه ، ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم فى كلامهم ، حتى حصلت له الملكة المستقرة فى العبارة عن

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ١٣٩ .
(٢) السابق ١ / ٦٧ .
(٣) الأصول د / تمام حسان ص ٦٥ طباعة مشتركة بين مصر والعراق فى دار الشئون الثقافية العامة سنة ١٩٨٨م ببغداد .

المقاصد على نحو كلامهم "(١).

النحووالدلالة:

قديما قال العلماء العرب " الإعراب فرع المعنى " فالمعنى كما يتوقف عليه فهم المفردة ، وكذلك التركيب لا يفهم بدون فهم معناه . و لا يمكن أن يكون التركيب رصاً للألفاظ دون نظر لمعناها ؛ لأن النحاة يقولون إن الجملة هى ما يحسن السكوت عليها ، والسكوت لا يتم إلا بعد الوقوف على معنى ، يُشفى عن التساؤل ، وفى ذلك يقول عبد القاهر الجرجانى " أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذى يفتحها ، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها وأنه المعيار الذى لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه "(٢) .

وعن ذلك يقول أبو حيان " الكلام يتغير المراد فيه باختلاف الإعراب ، كما يتغير الحكم فيه باختلاف الأسماء ، وكما يتغير المفهوم باختلاف الأفعال ، وكما ينقلب المعنى باختلاف الحروف ؛ولقد قال رجل بالرى كان نبيلاً فى حاله جليلاً فى مرتبته عظيماً عند نفسه :" اقعد حتى تتغذى بنا " وهو يريد " حتى تتغذى معنا " فانظر إلى هذا المُحال الذى ركبه بلفظه، وإلى المراد الذى جانبه بجهله ، ولهذا نظائر غير خافيه عليك "(٣).

ومن أهمية النحو فى الدلالة يقول ابن خلدون ، والذى يتحصل أن

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٦١ تحقيق درويش الجويدى طبع المكتبة العصرية سنة ١٩٩٥م
(٢) دلائل الإعجاز تأليف عبد القاهر الجرجانى ص ٢٨ تحقيق محمود محمد شاكر نشر مكتبة الخانجى بمصر سنة ١٩٨٩م .
(٣) الإمتاع والمؤانسة ١ / ١٠٢ - ١٠٣ .

الأهم المقدم منها هو النحو ، إذ به يتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول ، والمبتدأ من الخبر ، ولولاه لجهل أصل الإفادة "(١).

ويؤكد هذا ابن منظور فى اللسان " والإعراب : الذى هو النحو ، إنما هو الإبانة عن المعانى بالألفاظ ، وأعرب كلامه إذا لم يلحن فى الإعراب ، ويقال عرّبت له الكلام تعريباً ، وأعربت له إعراباً إذا بينته له "(٢).

وعن طريق المعنى يمكن أن تحل الصيغ محل بعض دون النظر إلى الزمن فى الأفعال كأن يحل الماضى محل المضارع ويأخذ معناه أو العكس " تحل صيغ الأفعال بعضها محل بعض ، اعتماداً على المعنى ؛ ففى قوله تعالى " إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ... ... "(٣) معناه : إذ يقول الله ، وإنما حسن إيقاع الماضى فى موقع الآتى ؛ لأن أمر القيامة لظهور براهينه ، وصدق المخبر به بمنزلة ما قد وقع وشوهد ، ومثله " وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ "(٤)فهذا من إيقاع الماضى موقع المضارع "(٥).

وكذلك المعنى " يتحكم فى نوع الوظيفة التى تقوم بها الكلمات فى التراكيب ؛ فإن الكلمات قد لا يتغير لفظها ، وتتنوع وظيفتها من جملة إلى أخرى تبعاً لتغير معناها . فكان التامة تختلف عن كان الناقصة ، وأفعال ظن وأخواتها تتراوح بين طلبها مفعولاً واحداً ، وطلبها مفعولين ، تبعاً

(١) مقدمه ابن خلدون ص ٥٤٥ .
(٢)لسان العرب [عرب]
(٣) سورة المائدة/ ١١٠ .
(٤) سورة الأعراف / ٤٤ .
(٥) الإعراب والتركيب بين الشكل والنسبة د/ محمود عبد السلام شرف الدين ص ٢٣ طبع دار مرجان بالقاهرة سنة ١٩٨٤م .
(٦) السابق ص ٢٦ .

بل إن المعنى يساعد التركيب على الخروج من الشذوذ " من مزايا اللجوء إلى المعنى ، واتخاذه وسيلة من وسائل التحليل أنه قد يمد النحوى بنظرة أخرى لا تشذذ التركيب ، أو تخطئه ، فلقد اتفق النحويون على أن الحال لا يأتى من المضاف إليه فى الإضافة المحضة ، إذا لم يكن المضاف جزءاً للمضاف إليه أو مثل جزئه ؛ لأن العامل فى الحال ينبغى أن يكون هو العامل فى ذى الحال .

ومن الأمثلة التى أجاز فيها النحويون مجئ الحال من المضاف إليه قوله ﴿ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾(١) فحنيفاً حال من إبراهيم "(٢).

وفى موضع آخر فى المناظرة التى تمت بين أبى سعيد السيرافى وبين متى بن يونس ، أن النحو يهتم بالمعنى على مستوى الحركة واللفظ والتراكيب ، إلا فى اللهجات التى هى خروج عن اللغة الموحدة ، وهذه أيضاً محكومة بالتتبع والرواية والسماع حيث يقول " فقال أبو سعيد : معانى النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته ، وبين وضع الحروف فى مواضعها المقتضية لها ، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخى الصواب فى ذلك ، وتجنب الخطأ من ذلك ، وإن زاغ شئ عن هذا النعت ، فإنه لا يخلو من أن يكون سائغاً بالاستعمال النادر ، والتأويل البعيد ، أو مردوداً لخروجه عن عادة القوم الجارية على فطرتهم ، فأما ما يتعلق باختلاف لغات القبائل فذلك شئ مسلم لهم ومأخوذ عنهم ، وكل ذلك

(١) سورة آل عمران / ١٣٥ .
(٢) الإعراب والتركيب ص ٣٤ .

محصور بالتتبع والرواية والسماع والقياس المطَّرد على الأصل المعروف من غير تحريف ، وإنما دخل العُجب على المنطقيين لظنهم أن المعانى لا تعرف ولا تستوضح إلا بطريقهم ونظرهم وتكلفهم فترجموا لغة هم فيها ضعفاء ناقصون ، وجعلوا تلك الترجمة صناعة وادعوا على النحويين أنهم مع اللفظ لامع المعنى "[1] .

وعن الحركات وعملها فى اللغة ، وأن الخطأ فيها أو التحريف يؤدى إلى الابتعاد عن المعنى وذلك فى ردِّ أبى سعيد السيرافى على متى بن يونس عندما قال : يكفينى من لغتكم هذه الاسم والفعل والحرف ، فإنى أتبلغ بهذا القدر إلى أغراض قد هذبتها لى يونان .

قال أبو سعيد : أخطأت لأنك فى هذا الاسم والفعل والحرف فقير إلى وصفها وبنائها على الترتيب الواقع فى غرائز أهلها ؛ وكذلك أنت محتاج بعد هذا إلى حركات هذه الأسماء والأفعال والحروف ، فإن الخطأ والتحريف فى الحركات كالخطأ والفساد فى المتحركات ، وهذا بأب أنت وأصحابك ، ورهطك عنه فى غفلة "[2]

وفى المناظرة نفسها يوضح له أبو سعيد السيرافى من هو النحوى ؟ حيث يقول وإذا قال لك آخر : كن نحوياً لغوياً فصيحاً " فإنما يريد : افهم عن نفسك ما تقول ، ثمُ رُم أن يفهم عنك غيرك ، وقدّر اللفظ على المعنى فلا يفضل عنه ، وقدر المعنى على اللفظ فلا ينقص ، هذا إذا كنت فى

(١) الإمتاع والمؤانسة ١ / ١٢١ .
(٢) السابق ١ / ١١٥ .

تحقيق شئ على ما هو به " [1]وعلى هذا فإن النحوى من أتى باللفظ على قدر معناه ففهم وأفهم ، والنحو يمتطى المعنى فى حركاته وسكناته وألفاظه وتراكيبه .

ويزيد أبو سعيد السيرافى الأمر وضوحاً بأن معنى الشئ تتضافر فيه الأصوات وصفاتها ، وبنية الكلمة وتقارب حروفها أو تباعدها . حيث يقول مخاطباً متى بن يونس " أما تعرف يا أبا بشر أن الكلام واقع على أشياء قد ائتلفت بمراتب ، وتقول بالمثل : هذا ثوب ، والثوب اسم يقع على أشياء بها صار ثوباً ؛ لأنه نسج بعد أن غزل ، فسداته لا تكفى دون لحمته ، ولحمته لاتكفى دون سداته ، ثم تأليفه كنسجه ، وبلاغته كقصارته، ورقة سلكه كرقة لفظه ، وغلظ غزله ككثافة حروفه ، ومجموع هذا كله ثوب ولكن بعد تقدمة كل ما يحتاج إليه فيه "[2]

وعن دور النحو فى الدلالة يقول العلامة عبد القاهر الجرجانى " لا يتصور أن يتعلق الفكر بمعانى الكلم أفراداً ومجردة من معانى النحو ، فلا يقوم فى وهم ، ولا يصح فى عقل ، أن يتفكر متفكر فى معنى "فعل" من غير أن يريد إعماله فى "اسم " ولا أن يتفكر فى معنى اسم من غير أن يريد إعمال " فعل " فيه وجعله فاعلاً أو مفعولاً ، أو يريد فيه حكماً سوى ذلك من الأحكام مثل أن يريد جعله مبتدأ أو خبراً ، أو صفة ، أو حالاً ، أو ما شاكل ذلك "[3]ثم يقول بعد ذلك " تبحث وتنقب ، تبتغى كلمة قد

(١) الإمتاع والمؤانسة١ / ١٢٥ .
(٢) السابق١ / ١٢١ .
(٣) دلائل الإعجاز / ٤١٠ .

اتصلت بصاحبة لها ، ولفظه قد انتظمت مع أختها ، من غير أن توخى فيما بينها معنى من معانى النحو ، طلبنا ممتنعاً ، وثنينا مطايا الفكر ظُلَّعا ، فإن كان ها هنا من يشك فى ذلك ، ويزعم أنه قد علم لاتصال الكلم بعضها ببعض ، وانتظام الألفاظ بعضها مع بعض ، معانى غير معانى النحو ، فإنا نقول له : هات ، فبين لنا تلك المعانى ، وأرنا مكانها ، واهدنا لها ، فلعلك قد أوتيت علماً قد حُجب عنا ، وفتح لك باب قد أغلق دوننا :

وذاك له إذا العنقاء صارت مربِّبةً وشب ابن الخصىّ (١)

وهذا ما جعل الزمخشرى يقول " لا يجدون علماً من العلوم الإسلامية فقهها وكلامها ، وعلمى تفسيرها وأخبارها ، إلا وافتقاره إلى العربية بيّن لا يدفع ومكشوف لا يتقنّع (٢)".

ومن هذا الجانب وهو عدم مراعاة اللفظ والمعنى معاً عاب أبو حيان الصاحب بن عباد يقول عنه " فهو يشين اللفظ ويحيل المعنى ، فأما شينه اللفظ فبالجفوة والغلظة والإخلال والفجاجة ، وأما إحالته فبالإبعاد عن حومة القصد والإرادة ، والعجب أنه يحفظ الطمَّ والرمَّ - العدد الكثير - من النثر والنظم " (٣)م يعدد أبو حيان الأسباب التى جعلت ابن عباد يخرج عن جادة الصواب على الرغم مما يحفظ من اللغة نثرها وشعرها حيث يقول " وابن عباد بُلى فى هذه الصناعة بأشياء كلها عليه لا له ، وخاذلته لا ناصرته ، ومسلمته لا منقذته ، فأول ما بُلى به أنه فقد الطبع وهو العمود ،

(١) دلائل الإعجاز ٤٢٠ .
(٢) المفصل فى علم العربية لأبى القاسم الزمخشرى ص٣ طبع دار الجيل ـ لبنان .
(٣) الإمتاع والمؤانسة ١ / ٦٢ .

والثانى : العادة وهى المؤاتية - أى المساعد المعينة - ، والثالث : الشغف بالجاسى -الجاف الصلب - من اللفظ ، وهو الاختيار الردئ ، والرابع : تتبع الوحشى ، وهو الضلال المبين ، والخامس الذهاب مع اللفظ دون المعنى ، والسادس : استكراه المقصود من المعنى واللفظ على النبوة ، والسابع : التعاظل المجهول بالاعتراض ، والثامن : إلف الرسوم الفاسدة من غير تصفح ولا فحص ، والتاسع : قلة الانعطاف بما كان - للثقة الواقعة فى النفس - من الفائت ، والعاشر : تضييق المتاع بالاقتدار فى سوق العزّ ، وهذه كلها سبل الضلالة وطرق الجهالة (١)

ولذلك يرى أبو حيان أن أفضل الأساليب أسلوب العراقيين حيث يقول " إذا أنصفنا التزمنا مزية العراقيين علينا بالطبع اللطيف ، والمأخذ القريب ، والسجع الملائم ، واللفظ المونق ، والتأليف الحلو ، والسُّبوطة الغالية ، والموالاة المقبولة فى السمع ، الخالية للقلب ، العابثة بالروح ، الزائدة فى العقل ، المشعلة للقريحة ، الموقوفة على فضل الأدب ، الدالة على غزارة المغترف ، النائية عن عادة كثير من السلف والخلف (٣) ويقول فى موطن آخر " وفى الجملة أحسن الكلام ما رقَّ لفظه ، ولطف معناه ، وتلألأ رونقه ، وقامت صورته بين نظم كأنه نثر ، ونثر كأنه نظم ، يطمع مشهوده بالسمع ، ويمتنع مقصوده على الطبع ، حتى إذا رامه مريغ حلّق ، وإذا حلّق أسف ، أعنى يبعد على المحاول بعنف ، ويقرب من المتناول بلطف (٤)".

(١) الإمتاع والمؤانسة ١ / ٦٤ - ٦٥ .
(٢) السابق١ / ٦٤ .
(٣) السابق٢ / ١٤٥ .
(٤) السابق ٢ / ١٣٩ .

ولذلك أورد أبو حيان أقوالاً عن العرب توضح أن أفضل الكلام ما لا يحتاج إلى سؤال وتوضيح ، وأن الإغراب واختيار الغريب والوحشى من الألفاظ يبعد صاحب اللغة عن لغته ، حيث يقول " قد قال بعض العرب : خير الكلام ما لم يحتج معه إلى كلام . ووقف أعرابى على مجلس الأخفش فسمع كلام أهله فى النحو ، وما يدخل معه ، فحار وعجب ، وأطرق ووسوس ، فقال له الأخفش : ما تسمع يا أخا العرب ؟ قال : أراكم تتكلمون بكلامنا بما ليس من كلامنا [1].

العقل ودوره بين الفكر والمعنى :

أوردنا فى التعريف بأبى حيان أنه فيلسوف وأديب ، والفلاسفة يعتمدون على العقل فى كثير من علومهم ، وقد أورد عن البخارى ارتباط العلم بالعقل فى تفسير قول الله تعالى ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ ﴾[2] حيث يقول " وفى فحوى ذلك وما يعلمها إلا العالمون ؟ فقد وصل العقل بالعلم ، كما وصل العلم بالعقل ؛ لأن كمال الإنسان بهما ، ألا ترى أن العاقل متى عُرى من العلم قلَّ انتفاعه بعلمه ؟ كذلك العالم متى خُلى من العقل بطل انتفاعه بعلمه ، أما قال ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾[3] أما قال :﴿فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الأَبْصَارِ ﴾[4] ... ... ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[5] " وكتاب الله عز وجل محيط

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢/ ١٣٩.
(٢) سورة العنكبوت / ٤٣ .
(٣) سورة البقرة / ٢٦٩ .
(٤) سورة الحشر / ٢ .
(٥) سورة ق / ٣٧ .

بهذا كله[1] .

ثم يوضح فى موضع آخر أن المعانى مبسوطة فى النفس ، ولم تحدد قبل الفكر ، فإذا تم التفكير فيها ، مر بها إلى العقل ليرى الصالح منها والطالح ما يتناسب مع الموقف ، ثم يخرج على صورة نثرية أو منظومة ، فالعقل هو المنسق بين المعانى السابحة فى النفس واختيار الفكر منها وبين كونها عالماً ملموساً مسموعاً أو مقروءاً حيث يقول " المعانى المعقولة بسيطة فى بحبوحة النفس ، لا يحوم عليها شئ قبل الفكر ، فإذا لقيها الفكر بالذهن الوثيق والفهم الدقيق ، ألقى ذلك إلى العبارة ، والعبارة حينئذ تتركب بين وزن هو النظم للشعر ، وبين وزن هو سياقة الحديث ، وكل هذا راجع إلى نسبة صحيحة أو فاسدة ، وصورة حسناء أو قبيحة ، وتأليف مقبول أو ممجوج ، وذوق حلو أو مر ، وطريق سهل أو وعر ، واقتضاب مفضل أو مردود ، واحتجاج قاطع أو مقطوع ، وبرهان مسفر أو مظلم ، ومتناول بعيد أو قريب ، ومسموع مألوف أو غريب "[2].

ويوضح ذلك فى موضع آخر حيث يقول "الكلام ينبعث فى أول مبادئه إما من عفو البديهة ، وإما من كد الروية ، وإما أن يكون مركباً منهما ، وفيه قواهما بالأكثر والأقل ، ففضيلة عفو البديهة أنه يكون أصفى ، وفضيلة كد الروية أنه يكون أشفى ، وفضيلة المركب منها أنه يكون أوفى ، وعيب عفو البديهة أن تكون صورة العقل فيه أقل ، وعيب كد الروية أن

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ١٩- ٢٠ .
(٢) السابق ٢ / ١٣٨ .

تكون صورة الحس فيه أقل ، وعيب المركب منهما بقدر قسطه منهما الأغلب والأضعف ، على أنه إن خلص هذا المركب من شوائب التكلف ، وشوائن التعسف ، كان بليغاً مقبولاً رائعاً حلواً ، تحتضنه الصدور ، وتختلسه الآذان ، وتنتهبه المجالس ، ويتنافس فيه المنافس بعد المنافس ، والتفاضل الواقع بين البلغاء فى النظم والنثر ، إنما فى هذا المركب الذى يسمى تأليفاً ورصفاً (١) " .

وفى رد أبى سعيد السيرافى على متى بن يونس حينما قال متى بن يونس " والنحو لم أنظر فيه ؛ لأنه لا حاجة بالمنطقى إليه ، وبالنحوى حاجة شديدة إلى المنطق ، لأن المنطق يبحث عن المعنى ، والنحو يبحث عن اللفظ(٢) " ... فقال له أبو سعيد : أخطأت ... ... ألا ترى أن رجلاً لو قال : نطق زيد بالحق ، ولكن ما تكلم بالحق ، وتكلم بالفحش ، ولكن ما قال الفحش ، وأعرب عن نفسه ولكن ما أفصح ، ... ... لكان فى جميع هذا محرفاً ومناقضاً وواضعاً للكلام فى غير حقه ، ومستعملاً اللفظ على غير شهادة من عقله وعقل غيره ، والنحو منطق ولكنه مسلوخ من العربية ، والمنطق نحو ، ولكنه مفهوم باللغة ، وإنما الخلاف بين اللفظ والمعنى أن اللفظ طبيعى والمعنى عقلى " (٣)ولذلك يقول الدكتور عبد السلام المسدّى "ويتواصل خطاب أبى حيان بإدخال اللغة إلى مغسلة العقل تستصفيها من أدران المغالطة وتعيد إليها نسق محركها ، وترجع

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ١٣٢ .
(٢) السابق١ / ١١٤ .
(٣) السابق ١ / ١١٤ - ١١٥ .

إليها ما فسد من توازن إيقاعاتها ، فيخرج القول الفكرى طاهراً ، ويخرج سؤال الفلسفة معافى ، فتعود إليه نصاعته ، ويسترجع وظيفته فى الأصول والفروع وّ الكليات والجزئيات "(١).

ولهذا فإن أبا حيان يرى أن الخطأ والصواب ليسا بخلق عند الإنسان ولكن ما أشرق عليه العقل فهو الصواب ، وما بَعُد عنه فهو الخطأ حيث يقول " وأما الصواب والخطأ فأمران عارضان للأقوال والأفعال والآراء وليسا بخلقين محضين ، ولكنهما موكولان إلى نور العقل ، فما أشرق عليه العقل بنوره فهو صواب ، وما أفل عنه العقل بنوره فهو خطأ " (٢).

ثم إن أبا حيان يوضح لنا أن العقل فى حاجة إلى الأمور الخارجية ، وإلا فليجنح ويتصور ما لا وجود له فى الواقع حيث يقول " وكما أن القوة الحسية عاجزة بطباعها عن استخراج البواطن الأوائل ، بل تحتاج معها إلى القوة العاقلة وإن قويت لصار العقل فضلاً ، كذلك - أيضاً - القوة العاقلة لا تقوى بذاتها على استنباط المركبات إلا من جهة القوة الحسّاسة ، ولو قويت لصار الحس فضلاً للعاقلة "(٣) ولذلك يقول فى موطن آخر " ولو كان العقل يكتفى به لم يكن للوحى فائدة ولا غناء ، على أن منازل الناس متفاوتة فى العقل ، وأنصباؤهم مختلفة فيه ، فلو كنا نستغنى عن الوحى بالعقل كيف كنا نصنع ؟

(١) مجلة فصول - المجلد الرابع عشر - العدد الثالث ص ١٤٤ مقال سؤال اللغة .
(٢) الإمتاع والمؤانسة ١ / ١٥١ .
(٣) السابق٢ / ٨٤ .

وليس العقل بأسره لنا وإنما هو لجميع الناس "[1] ويوضح أبو حيان علاقة العقل والطبيعة فى التعرف على المعانى بأنها علاقة التضاد ومن الدلالة أن تعرف الشئ بضده حيث يقول " مسلك العقل فى تعرف المعانى الطبيعية مقابل لمسلك الطبيعة فى إيجادها ؛ لأن الطبيعة تتدرج من الكليات البسيطة إلى الجزيئات المركبة ، والعقل يتدرج من الجزيئات المركبة إلى البسائط الكلية "[2] .

بل إن أبا حيان يرى أن كمال المعنى فى اتحاده مع اللفظ ، ولكن الاعتناء باللفظ دون المعنى هو حمق حيث يقول " والمعانى صوغ العقل ، واللفظ صوغ اللسان ، ومن بَعُد من المعانى قلّ نصيبه من العقل ، ومن قلّ نصيبه من العقل كثر نصيبه من الحمق ، ومن كثر نصيبه من الحمق خفى عليه قبح الذكر "[3] .

ولكثرة اعتناء أبى حيان بالعقل ودوره فى اللغة أورد الدكتور عبد السلام المسدى " لقد شملت عناية العقل عند أبى حيان قضية اللغة بكل مكوناتها ، ما عاد منها إلى بنيتها الأدائية ، وما كان يعود فيها إلى وظيفتها التأثيرية "[4] .

ولم يقف أبو حيان فى الاعتماد على العقل عند الصورة الأدائية من اللغة ، بل شمل الإبداع حيث يقول فى الإنشاء " مبدأها من العقل ،

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ١٠ .
(٢) السابق ٢ / ٨٦ .
(٣) السابق ٣ / ١٢٧ .
(٤) مجلة فصول - المجلد الرابع عشر - العدد الثالث ص ١٤١ .

ومقرها على اللفظ ، وقرارها فى الخط "[1] .

ثم يعمم الأمر بأن العلم متبعه العقل حيث يقول " العقل ينبوع العلم، والطبيعة ينبوع الصناعات ، والفكر بينهما مستملٍ منهما ، ومؤدٍ بعضها إلى بعض بالفيض الإمكانى والتوزيع الإنسانى ، فصواب بديهة الفكرة من سلامة العقل ، وصواب رؤية الفكرة من صحة الطباع "[2] .

وفى المحصلة فإن أبا حيان جعل العقل كالشمس ، بل إنه يفوق الشمس فى عدم غروبه وعدم كسوفه حيث يقول "العقل - أيضا - شمس أخرى ، ولكنها تطلع على النفس التى ليست حاوية لجدار وسطح ، وبر ، وبحر ، وجبل ، وسهل ، لأنه لما كان العقل أشرق من النفس ، لأنه مستخلف للنفس " والنفس خليفته ، كان إشراقه ألطف ، ومنافعه فى إشراقه أشرف ، وأيضاً ، فإن الشمس تجدها بالحس لها غروب وطلوع ، وتجلٍّ وكسوف ، وليس كذلك العقل ؛ لأن إشراقه دائم ، ونوره منتشر ، وطلوعه سرمد ، وكسوفه معدوم ، وتجلّيه غير متوقف "[3] .

اللفظ والمعنى :

نبه أبو حيان فى كتابه الإمتاع والمؤانسة على الاتفاق بين اللفظ والمعنى وأنه لا يمكن الفصل بينهما - وقد وضح ذلك فى النحو والدلالة - بل إنه كان ينبه على الاتفاق بينهما فيقول " لا تعشق اللفظ دون

(١) الإمتاع والمؤانسة ١ / ١٠١ .
(٢) السابق ١ / ١٤٤ - ١٤٥ .
(٣) السابق ٣ / ١١٩ .

المعنى ، ولا تهو المعنى دون اللفظ "[1] ؛ لأن اللفظ بدون معنى موات ، والمعنى بدون قالب يوضع فيه وهو اللفظ فهو خيال ، ويؤكد ذلك على لسان أبى سعيد السيرافى فى مناظرة متى بن يونس حيث يقول " وقدر اللفظ على المعنى فلا يفضل عنه ، وقدر المعنى على اللفظ فلا ينقص منه "[2] ويوضح أن المعانى إذا اختلفت احتاجت إلى ألفاظ تعبر عنها ليتفق اللفظ والمعنى حيث يقول " ولكن إذا لحظنا المعانى مختلفة ، طلبنا لها أسماء مختلفة ؛ ليكون ذلك معونة لنا فى تحديد الأشياء ، أو فى وصف الأشياء "[3] ولذلك يوضح أن ما يصيب أحدهما يقع على الآخر حيث يقول ، وقد يستعجم المعنى كما يستعجم اللفظ ، ويشرد اللفظ كما يند المعنى "[4].

وفى المناظرة بين أبى سعيد السيرافى وبين متى بن يونس ، يقول متى : المنطق يبحث عن المعنى، والنحو يبحث عن اللفظ، فإن مرّ المنطقى باللفظ فبالعرض، وإن عثر النحوى بالمعنى فبالعرض ، والمعنى أشرف من اللفظ، واللفظ أوضح من المعنى.فقال أبو سعيد : أخطأت ؛ لأن الكلام والمنطق ، واللغة، و اللفظ ، والإفصاح ، والإعراب،والإبانة ، والحديث، والإخبار، والاستخبار، و العرض، والتمنى،والنهى ، والحض،والدعاء ، والنداء ، والطلب ،كلها من واد واحد بالمشاكلة والمماثلة "[5].

(١) الإمتاع والمؤانسة ١ / ١٠ .
(٢) السابق١ / ١٢٥ .
(٣) السابق ٣ / ١٣٥ .
(٤) السابق١ / ٦٥ .
(٥) السابق١ / ١١٤ .

ثم يضرب له مثالاً واقعياً يوضح فيه خطأه حيث يقول أبو سعيد " هاهنا مسألة علاقتها بالمعنى العقلى أكثر من علاقتها بالشكل اللفظى ، ما تقول فى قول القائل : " زيد أفضل الأخوة " ؟ قال : صحيح ، قال : فما تقول : إن قال " زيد أفضل أخوته " ؟ قال : صحيح ، قال فما الفرق بينهما مع الصحة ؟ فبلح و جنح ، وغصّ بريقه فقال أبو سعيد : أفتيت على غير بصيرة ولا استبانة ؛ المسألة الأولى جوابك عنها صحيح ، وإن كنت غافلاً عن وجه صحتها ، والمسألة الثانية جوابك عنها غير صحيح ، وإن كنت - أيضاً - ذاهلاً عن وجه بطلانها [1] ..فلم تدعى أن النحوى إنما ينظر فى اللفظ دون المعنى ، والمنطقى ينظر فى المعنى لا فى اللفظ ؟ هذا كان يصح لو أن المنطقى كان يسكت ويجيل فكره فى المعانى ، ويرتب ما يريد بالوهم السانح والخاطر العارض والحدس الطارئ ، فأما وهو يريغ أن يبرر ما صحّ له بالاعتبار، والتصفح إلى المتعلم والمناظر، فلابد له من اللفظ الذى يشتمل على مراده، ويكون طباقاً لغرضه ، وموافقاً لقصده "[2]

ثم يرد عليه متى قائلاً : لو نثرت أنا أيضاً عليك من مسائل المنطق أشياء لكان حالك كحالى .. قال أبو سعيد : أخطأت ، لأنك إذا سألتنى أجبت ، ثم لا أبا لى أن يكون موافقاً أو مخالفاً ، وإن كان غير متعلق بالمعنى رددته عليك وإن كان متصلاً باللفظ ولكن على وضع لكم فى

(١) وأجاب عن الصواب والخطأ فى المسألتين بقوله " إذا قلت "زيد أفضل أخوته " لم يجز ، وإذا قلت " زيد أفضل الأخوة " جاز ، والفصل بينهما أن أخوة زيد هم غير زيد وزيد خارج عن جملتهم . الإمتاع والمؤانسة ١ / ١٢٠ .
(٢) الإمتاع والمؤانسة ١ / ١١٩ - ١٢٠ .

الفساد على ما حشوتم به كتبكم رددته أيضاً ؛ لأنه لا سبيل إلى إحداث لغة فى لغة مقررة بين أهلها [1]" أى أنه إذا كان اللفظ موافقاً معناه على قواعد لغته سبرد عليه ولكن ما دون ذلك ما درج عليه المناطقة من مقدمات ونتائج بما يتفق ولغة اليونان فإنه لا يمكن تطبيق قواعد لغة على أخرى .

ويوضح أبو حيان أن المعانى متسعة والألفاظ محدودة حيث يقول " إن مركب اللفظ لا يجوز مبسوط العقل ؛ والمعانى معقولة ولها اتصال شديد وبساطة تامة ، وليس فى قوة اللفظ فى أى لغة كان أن يملك ذلك المبسوطة ويحيط به ، وينصب عليه سوراً ، ولا يدع شيئاً من داخله أن يخرج ، ولا شيئاً من خارجة أن يدخل " [2] ولذلك يقول فى موطن آخر " الأسماء المحددة دلالتها على الأعيان لا على صفات الأعيان ، أو ما يكون من الأعيان ، أو ما يكون فى الأعيان "[3].

ويوضح اتساع المعانى واختلافها ، وأن الألفاظ قد تتفق لاتفاق موردها فى أى لغة وهى أصواتها المكونة لكلماتها ، ولكن المعانى تتعلق بالعقل والعقول تختلف من شخص لآخر حيث يقول " اللفظ نظير اللفظ فى أغلب الأمر ، وليس المعنى نظير المعنى فى أغلب الأمر ، واللفظ كله من وادٍ واحد فى التركب بلغة كل أمة والمعانى تختلف فى البساطة على قدر العقل والعقل ، و العاقل والعاقل [4]"

(١) الإمتاع والمؤانسة ١ / ١٢٢ .
(٢) السابق ١ / ١٢٦ .
(٣) السابق ١ / ٢١٤ .
(٤) السابق ٣ / ١٣٤ .

ويرى عبد القاهر الجرجانى أن التصور العقلى هو الذى يجعل المعانى تختلف للتصور الخارجى عند الشخص حيث يقول " واعلم أن قولنا الصورة ، إنما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذى نراه بأبصارنا ، فلما رأينا البينونة بين آحاد الأجناس تكون من جهة الصورة ، فكان تبين إنسان من إنسان وفرس من فرس ، بخصوصية تكون فى صورة هذا لا تكون فى صورة ذاك ، وكذلك الأمر فى المصنوعات ، فكان تبين خاتم من خاتم ، وسوار من سوار بذلك [1] وهذا ما قصده أبو حيان فى قوله " النوم واسطة بين الحياة والموت ، و الموت واسطة بين البقاء الذى يتصل بالشهود ، وبين البقاء الذى يتصل بالخلود ،وهذا نعت على تسهيل اللفظ وتقريب المراد والتصور[2] .

وعن الصورة يقول " قيل : فما الصورة ؟ قال التى بها يخرج الجوهر إلى الظهور عند اعتقاب الصور إيّاه[3] . "

ثم يوضح الفرق بين الصورة الصناعية والصورة النفسية حيث يقول " وأما الصورة الصناعية فهى أبين من ذلك ؛ لأنها مع غوصها فى مادتها بارزة للبصر والسمع ولجميع الإحساس ، كصورة السرير ، والكرسى ، والباب ، والخاتم وما أشبه ذلك . وأما الصورة النفسية فهى راجعة إلى العلم والمعرفة ، وتوابعها فيما يحققها أو يخدمها ، وهى شقيقة للصورة العقلية بالحق [4]»

(١) دلائل الإعجاز / ٥٠٨ .
(٢) الإمتاع والمؤانسة ١ / ٢١٨ .
(٣) السابق ٣ / ١٣٦ .
(٤) السابق ٣ / ١٤٢ .

ويوضح الصورة اللفظية فيقول " وأما الصورة اللفظية فهى مسموعة بالآلة التى هى الأذن ، فإن كانت عجماء فلها حكم ، وإن كانت ناطقة فلها حكم وعلى الحالين فهى بين مراتب ثلاث إما أن يكون المراد بها تحسين الإفهام ، وإما أن يكون المراد بها تحقيق الإفهام ، وعلى الجميع فهى موقوفة على خاص ما لها فى بروزها من نفس القائل ، ووصولها إلى نفس السامع ؛ ولهذه الصورة بعد هذا كله مرتبة أخرى إذا مازجها اللحن إلى نفس السامع ، ولهذه الصورة بعد هذا كله مرتبة أخرى إذا مازجها اللحن والإيقاع بصناعة الموسيقار ، فإنها حينئذ تعطى أموراً ظريفة ، وأعنى أنها تلذ الإحساس، وتلهب الأنقاس، وتستدعى الكاس والطاس وتروّح الطبع ، وتنعم البال، وتذكر بالعالم المشوق إليه المتلهف عليه[1]".

وابن خلدون يوضح فى مقدمته أن الألفاظ ما هى إلا رموز لما ثبت فى أذهاننا من صور لمعانى الألفاظ ،ولذلك إذا سبق اللسان فى تعلم لغة غير لغته فإنها تقعد به عن تحصيل العلوم ، والسبب فى ذلك ما اختمر فى ذهنه من معان لهذه اللغة حيث يقول " إن العجمة إذا سبقت إلى اللسان قصرت بصاحبها فى تحصيل العلوم عن أهل اللسان العربى ، والسر فى ذلك أن مباحث العلوم كلها إنما هى فى المعانى الذهنية والخيالية "[2].

ولذلك فإن المحدثين حددوا الدلالة بأمور ثلاثة هى اللفظ ، والشئ والصورة ، وعن ذلك يقول الدكتور إبراهيم أنيس " هناك أمور ثلاثة يجب

(١) الإمتاع والمؤانسة ٣ / ١٤٤ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٣ .

التمييز بينها وهى : اللفظ ، والشئ ، والصورة الذهنية ، فكلمة "التفاح" لفظة تتكون من عدة أصوات يعرف دارس الأصوات كيف تصدر من الفم؟ وصفات كل صوت منها ، وما تحدثه من اهتزازات ، وذبذبات حين النطق بها ، و " الشئ " بالنسبة لكلمة التفاح هو تلك الفاكهة، اللذيذة المعروفة ، أما الصورة الذهنية فهى ما يتصوره كل منا حين يسمع تلك الكلمة ، والربط الحقيقى لا يكون إلا بين الشئ وصورته الذهنية ، أى أن اللفظ شئ أجنبى عنهما اتخذ دليلاً عليهما أو رمزاً لهما ، ولكنه اكتسب من الزمن صفة سمت به فوق اعتباره مجرد رمز من الرموز "[1].

ولا شك أن مرور الزمن ، واختلاف العصور يؤدى إلى تغير المعانى، كما أن اختلاف العادات والتقاليد والأوضاع الاجتماعية تؤدى إلى تغير المعانى ، ولذلك يورد أبو حيان فى رده على من أراد أن يؤلف فى موضوع فقيل له إن الجاحظ قد أتى على هذا الباب فأجمل ووضح فقال " ليس يجوز أن يظن به أنه قد أحاط بكل باب ، أو بالباب الواحد إلى آخره على أنه حدث من عهد الجاحظ إلى وقتنا هذا أمور وأمور ، وهَنات وهَنات ، وغرائب وعجائب ؛ لأن الناس يكتسبون على رأس كل مائة سنة عادة جديدة ، وخليقة غير معهودة ، وبدء هذه المئين ، وهو الوقت الذى فيه تنعقد شريعة ، وتظهر نبوة ، وتفشو أحكام ، وتستقر سنن ، وتؤلف أحوال بعد فطام شديد ، وتلكؤ واقع ، ثم على استئناف ذلك يكون ما يكون "[2].

(١) دلالة الألفاظ د / إبراهيم أنيس ص ١٠١ - ١٠٢ نشر مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٦.

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ٣ .

وعن التطور فى الدلالة يقول أبو حيان " اللغة جارية على التوسع ، كما هى جارية على التضيق ، ومن ناحية التضيق فزع إلى التحديد والتشديد ، ومن ناحية التوسع جُرى على الاقتدار والاختيار ، وفى عرض هذين بلاء آخر ؛ لأنه بين الإيجاز والإطناب ، وبين الكناية والتصريح ، وبين الإنجاز والإبطاء [1] "

وعلى هذا " فإن الواضع الأول يستعمل اللفظ فى معنى خاص ، وهذا المعنى لا يثبت ، مادام شأن الحياة التغير ، فقد يحتاج - مع مرور الأيام - إلى تطور معناه بالاتساع بحيث يدل على ما هو أشمل - أو الضيق بحيث ينكمش فى دائرة أقل من الأولى دلالة ، وقد ينتقل إلى معنى آخر ، وقد تتعدد للفظ الواحد معان كثيرة تتأرجح بين الوجود والعدم فيموت معنى ، ويولد آخر ، وقد يحيا القديم ، ويموت الجديد ، وقد يموت اللفظ نفسه أو ينحرف ، وهكذا من صنوف التبدلات والتغيرات [2] " .

عوامل التطور الدلالى:

لا شك أن كثرة استعمال اللفظ تؤدى إلى تغيير معناه ، لأنها هى الآلة التى يتعامل بها الناس ، ومادامت الحياة فى تجدد ، فلابد لهذه الألفاظ أن تتطور بكثرة استعمالها وقد أشار إلى ذلك أبو حيان حيث يقول " يقال شهى وأشهى ، ويقال فى الآخر حَبَّ وأحب ، ويتداخلان كثيراً

(١) الإمتاع والمؤانسة ٣ / ١٠٦ .

(٢) علم اللغة بين القديم والحديث د / عبد الغفار حامد هلال ص ٢٠٦ مطبعة الجلاوى بالقاهرة سنة ١٩٨٦م.

(٣) الإمتاع والمؤانسة ٣ / ٢٠٦ .

بالاستعمال [3] " أى أنه رغم اختلاف البنية بين الثلاثى والرباعى ، ومعلوم أن الزيادة فى المبنى تؤدى إلى زيادة فى المعنى ، ولكن كثرة الاستعمال جعلت الاستعمالين بمعنى واحد .

بل إن أبا حيان يوضح أن كثرة الاستعمال كثيراً ما تؤدى إلى تغير الدلالة حينما سئل من الوزير : هل تعرف العرب الفرق بين الروح والنفس فى كلامها ؟ وهل فى لفظها من نظمها ونثرها ما يدل على ما بينهما ، أو هما كشئ واحد لحقه اسمان ؟

فكان الجواب : إن الاستعمال يخلط هذا بهذه ، وهذه بهذا فى مواضع كثيرة وإذا جاء الاعتبار أفرد أحدهما من الآخر بالحد والاسم ، وعلى هذا اتفق رأى الحكماء ؛ لأنهم حكموا أن الروح جسم لطيف منبث فى الجسد على خاص ما له فيه ، فأما النفس الناطقة فإنها جوهر إلهى ، وليست فى الجسد على خاص ما له فيه ، ولكنها " مدبرة للجسد ... ... وقد وجدنا فى كلام العرب مع هذا الفرق بينهما ، فإن النابغة قد قال للنعمان بن المنذر :

وأسكنت نفسى بعد ما طار روحها وألبستنى نعمى ولست بشاهد [1]

وعن كثرة الاستعمال يقول الدكتور إبراهيم أنيس " الألفاظ لم تخلق لتحبس فى خزائن من الزجاج أو البلور ، فيراها الناس من وراء تلك الخزائن ثم يكتفون بتلك الرؤية العابرة !! ولو أنها كانت كذلك لبقيت على حالها جيلاً بعد جيل دون تغير أو تحول ، ولكنها وجدت ليتداولها

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ١١٣ .

الناس ، وليتبادلوا بها فى حياتهم الاجتماعية كما يتبادلون بالعملة والسلع، غير أن التبادل بها يكون عن طريق الأذهان والنفوس ، تلك التى تتباين بين أفراد الجيل الواحد والبيئة الواحدة ، فى التجربة والذكاء ، وتتشكل وتتكيف الدلالة تبعاً لها ، ومع اشتراك الناس فى ناحيتها المركزية نراهم يختلفون فى حدودها الهامشية وفى ظلالها ، وما يكتنفها من ظروف وملابسات تتغير كل يوم ، وتتنوع بتنوع التجارب والأحداث ، فإذا ورثتها الأجيال الناشئة واتخذتها أيضاً للتعامل والتبادل لم ترثها على حالها الأولى ، بل ترثها مع بعض الانحراف فى الدلالة ، ثم يتضخم ذلك الانحراف على توالى الأجيال »[1].

وكذلك الانتقال من لغة إلى لغة يؤدى إلى تطور فى الدلالة وقد أشار أبو حيان إلى اختلافات اللغات فمن ذلك ما ورد على لسان أبى سعيد السيرافى " إذا كان المنطق وضعه رجل من يونان على لغة أهلها واصطلاحهم عليها ، وما يتعارفونه بها من رسومها وصفاتها ، فمن أين يلزم الترك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه ، ويتخذوه قاضياً وحكماً لهم وعليهم "[2] ويكرر ذلك مرة أخرى " على أن هاهنا سرّاً ما علق بك ، ولا أسفر لعقلك ، وهو أن تعلم أن لغة من اللغات لا تطابق لغة أخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها ، فى أسمائها وأفعالها وحروفها وتأليفها وتقديمها وتأخيرها ، واستعارتها وتحقيقها ، وتشديدها وتخفيفها

(١) دلالة الألفاظ د/ إبراهيم أنيس ص ١٣٤- ١٣٥ .
(٢) الإمتاع والمؤانسة ١ / ١١٠ .

، وسعتها وضيقها ، ونظمها ونثرها ، وسجعها ووزنها وميلها ، وغير ذلك مما يطول ذكره »[1].

ثم يوضح أن الترجمة من لغة إلى أخرى لا يمكن أن تكون مطابقة تمام التطابق حيث يقول " إذا سلمنا لك أن الترجمة صدقت وما كذبت ، وقوّمت وما حرفت ، ووزنت وما جزفت ، وأنها ما التاثت ولا حافت ، ولا نقصت ولا زادت ، ولا قدمت ولا أخرت ، ولا أخلت بمعنى الخاص والعام ، ولا بأخص الخاص ، ولا بأعم العامّ ، وإن كان هذا لا يكون ، وليس هو فى طبائع اللغات ، ولا فى مقادير المعانى »[2].

وقد أورد أبو حيان ما يدل على تطور المعنى من خلال الترجمة وذلك حينما سأل الوزير " سراويل يذكر أم يؤنث ، ويصرف أم لا ؟

فكان الجواب : أن على بن عيسى حدثنا عن شيخه ابن السراج قال : سألت المبرد فقلت : إذا كان الواحد فى صيغة الجمع ما يصنع به الصرف ، فى مثل شعره هراميل ، وهذه سراويل ، وما أشبهه فقال : ألحقه بالجمع فامنعه الصرف ؛ لأنه مثله وشبيهه . قال : وسألت أحمد بن يحى عن ذلك ، فقال : أخبرنا سلمه عن الفراء قال : ألحقه بأحمد فامنعه الصرف فى المعرفة ، واصرفه فى النكرة حتى يكون بين الواحد والجمع فرق »[3].

وعن كلمة " سراويل " يقول ابن منظور " السراويل : فارسى معرب ،

(١) الإمتاع والمؤانسة ١ / ١١٥ - ١١٦ .
(٢) السابق١ / ١١٢ .
(٣) السابق٢ / ١٩٦ - ١٩٧ .

يذكر ويؤنث ولم يعرف الأصمعى فيها إلا التأنيث ... ... قال الليث : السراويل : أعجمية أعربت "[1] وهذا اللفظ مفرد ، ولكنه لما عُرّب إلى العربية وهو على صيغة مفاعيل ، وهى صيغة جمع فى اللغة العربية ، فعومل معاملة الجمع " قال سيبويه : سراويل واحدة وهى أعجمية أعربت فأشبهت من كلامهم ما لا ينصرف فى معرفة ولا نكرة ، فهى مصروفة فى النكرة[2]" ويقول الفيومى " السراويل : أنثى ، وبعض العرب يظن أنها جمع ؛ لأنها على أوزان الجمع وبعضهم يذكر "[3] ، وعلى هذا فإن لفظ " سراويل " - اكتسب معنى جديدا" حيث إنه دل على الجمع بعد تعريبه وإدخاله فى اللغة العربية حيث إنه وافق فى صياغته صيغة الجمع ، وجرى عليه ما يجرى على مثيله فى لغتنا من الصرف وعدمه .

ولقد كان للأعاجم الأثر فى لغتنا عندما انتشر الإسلام ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، فالمعروف لنا أن صفة الرجل تقابلها فى المؤنث المرأة ولكن لم يسمع فى صفة المرأة أنها رجلة ، ولكن فى كلام العرب كانت تستخدم هذه الصفة للمؤنث ثم اندثرت ، ويرى أبو سعيد السيرافى أن ذلك من تأثير الأعاجم حيث يقول " كان يقال فى عائشة بنت أبى بكر الصديق - رضى الله عنهما -" كانت رجلة العرب " وإنما ضاعت هذه الصفة على مَرّ الأيام بغلبة العجمات ؛ فقال : إنها والله لكذلك " [4]وقد

(١) لسان العرب لابن منظور [سرل] طبع دار صادر _ لبنان .
(٢) الصحاح - للجوهرى. [سرل] طبع دار إحياء التراث العربى _ لبنان سنة ١٩٩٩م .
(٣) المصباح المنير للفيومى. [سرل] طبع المكتبة العلمية _ لبنان .
(٤) الإمتاع والمؤانسة ٣/ ١٩٩ .

أورد ابن منظور عن ابن جنى " والأنثى رجلة قال :

كل جار ظل مغتبطاً ... غير جيران بنى جبلة

خرقوا جيب فتاتهم ... لم يُبالوا حرمة الرجلة

عنى بجيبها هنها ، وحكى ابن الأعرابى:أن أبا زياد الكلابى قال فى حديث له مع امرأته : فتهايج الرجلان ، يعنى نفسه وامرأته ، كأنه أراد فتهايج الرجل والرجلة فغلب المذكر[1]"

وقد يتفق اللفظ الأجنبى فى لفظه مع اللفظ العربى ، وبذلك يدل على معنيين مختلفين فى اللغة الأجنبية بمعنى وفى العربية بأخرى ومن ذلك ما أورده أبو حيان " قال حمزة المصنف فى بعض كتبه : قال النبى -ﷺ- لسلمان الفارسى : أن اتخذ لنا سوراً ، أى طعاماً كطعام الوليمة ، وهى فارسية . قال شيخنا أبو سعيد السيرافى : أخطأ هذا المتأول، وإنما أراد النبى -ﷺ- أن سلمان اتخذ لنا خندقاً يوم الأحزاب ؛ لأنه حض على ذلك ، وليس ذا من ذاك إلا باللفظ[2].

وقد أكد ابن الأثير فى النهاية فى غريب الحديث والأثر التأويل الأول، وأن الحديث عن جابر - رضى الله عنه - حيث أورد " فى حديث جابر رضى الله عنه " أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : قوموا فقد صنع جابر سوراً " أى طعاماً يدعو إليه الناس . اللفظة فارسية "[3] وأكد هذه

(١) لسان العرب [رجل] .
(٢) الإمتاع والمؤانسة ٣ / ٨٣ .
(٣) النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٢/ ٤٢٠ تحقيق طاهر أحمد الزاوى ، ومحمود محمد الطناحى _ المكتبة العلمية _ لبنان .

الرواية ابن منظور فى لسان العرب "[1].

هذا وإن كانت عوامل التطور الدلالى أكثر من ذلك إلا أننا نجد أبا حيان قد أورد منها ما يتصل باللغة ، أو ما يعود إلى أسباب اجتماعية ونفسية وغير ذلك .

أنواع الدلالة :

أورد العلماء أن أنواع الدلالة تكون صوتية ، وصرفية ، ونحوية ، ومعجمية .

ومن النوع الأول أورد أبو حيان فى الإبل إذا زادت على المائة تسمى جرجوراً " وإنما سميت جُرجُوراً لجراجرها وأصواتها "[2] أى أن تسميتها وهى دلالة ورمزاً لها أخذ من أصواتها وأصوات مشيها واجترارها ، فكانت الأصوات دليلاً على التسمية .

ومن الدلالة الصوتية أيضاً ما أورده أبو حيان " ما الفرق بين القبص والقبض ؟ فقيل : القبص لعدد ما كان قليلاً أو كثيراً ، قال ابن الأعرابى : وأنشدنى العامرى لابن ميادة :

عطاؤكم قبص ويحفن غيركم وللحفن أغنى للفقير من القبص

وقال : القبص بأطراف الأصابع ، والقبض بالكف ، والحفن بالكف والراحة إلى فوق مفتوحة قليلاً "[3] فعبر عن الشئ القليل بالصاد الرخوة، وعن الشئ الكثير بالضاد الشديدة ، وإن كانت على وصف الأقدمين بأنها

(١) لسان العرب [سور]
(٢) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ١٩٣ .
(٣) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ١٩٣ .

تخرج من حافة اللسان مع ما يحاذية من الأضراس العليا فيكون التمكن مع الضاد لتمكنها من اللسان بخلاف الصاد التى تخرج من طرفه.

ومن الدلالة الصرفية ما أورده أبو حيان من اختلاف معنى الفعل باختلاف مصدره " قال : آم الرجل ماذا ؟ فقيل : هذا على وجوه ؛ يقال : آم الرجل يؤوم أواماً من العطش ، ويقال : آم الرجل يؤوم إياماً وهو الدخان ، وآم الرجل يئيم إذا بقى بغير حليلة ، والأيمّ مستعمل فى الرجل والمرأة "[1].

ومن ذلك " واحد المناخيب : منخاب ، يمدح به ويذم ، فإذا كان مدحاً فهو مأخوذ من النخب . وهو الاختيار ، وإذا كان ذماً فهو مأخوذ من النخبة ، وهى الأست ، قال : وهكذا المنخاب يكون مدحاً وذماً ، فإذا كان مدحاً فهو مأخوذ من الانتخاب ، وهو الاختيار ، وإذا كان ذمًّا فهو مأخوذ من النخب ، وهو قشر الشجر "[2].

ومن الدلالة النحوية : ما أورده أبو حيان على لسان أبى سعيد السيرافى فى مناظرة متى ابن يونس " زيد أفضل الأخوة " وزيد أفضل أخوته " وأجاب متّى بصحة الجملتين فقال له أبو سعيد صدقت فى الأولى بدون معرفة ، وأخطأت فى الثانية [3] وأوضح له ذلك قائلاً " زيد أفضل أخوته " لم يجز ، وإذا قلت : " زيد أفضل الأخوة " جاز ؛ والفصل بينهما أن أخوة زيد هم غير زيد ، وزيد خارج عن جملتهم . والدليل على

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ١٩٤ .
(٢) السابق ٢ / ١٩٧ .
(٣) السابق ١ / ١١٩ - ١٢٠ .

ذلك أنه لو سأل سائل فقال : من أخوة زيد ؟ لم يجز أن تقول : زيد ، وعمرو ، وبكر ، وخالد ، وإنما تقول : بكر ، وعمرو ، وخالد ، ولا يدخل زيد فى جملتهم ، فإذا كان زيد خارجاً عن أخوته صار غيرهم ، فلم يجز أن تقول : أفضل أخوته ، كما لم يجز أن تقول " إن حمارك أفره البغال " لأن الحمير غير البغال ، كما أن زيداً غير أخوته ، فإذا قلت " زيد خير الأخوة " جاز ؛ لأنه أحد الأخوة ، والاسم يقع عليه وعلى غيره ، فهو بعض الأخوة "[1] .

وعن الدلالة المعجمية فإن الوزير كان يسأل عن ألفاظ ، وكان أبو حيان ومن أخذ عنه من العلماء يقوم مقام المعجم فى توضيح معنى ما يريد :

فمثلاً " سأل عن جُشم فى اسم الرجل ما معناه ؟

فكان من الجواب : إن أبا سعيد السيرافى الإمام ذكر عن ابن الأعرابى أنه يقال : "رجل عظيم الجُشم" يعنى وسطه ، ومنه سُمى جُشم .

وقال : ما الحمحم ؟ وما الخمخم ؟ فقيل أما الحمحم : فبقل يهيج فى أول الصيف وينبت فيؤكل فى ذلك الوقت ؛ وأما الخمخم : فبقل آخر خبيث منتن الريح .

وقال : فأرة المسك : أتقولها بالهمز ؟

فكان الجواب : حكاه ابن الأعرابى بالهمز

(١) الإمتاع والمؤانسة ١ / ١٢٠ .
(٢) السابق ٢ / ١٩١ - ١٩٢ .

قال عارضا الرجل ما يعنى بهما ؟ قيل : قال أبو سعيد السيرافى : هما شعر خدّية ولو قلت : لأمْرد ، امسح عارضيك كان خطأ .

وقال : سمعت اليوم فى كلام ابن عُبيد : لايثه ، وظننت أنه أراد : لاوثه من اللوث لوث العمامة . فقيل :بل يقال : لايثه إذا تشبه بالأسد .

وقال : ما الشاكد : فقيل : المعطى من غير مكافأة "[1] .

الترادف والاشتراك والتضاد :

لا شك أن سعة العربية ، وكثرة استعمالها ، وصفتها الاشتقاقية ، يؤدى إلى كثرة الألفاظ لتتوائم مع الحياة ومستجداتها ، وهذه الكثرة تؤدى إلى هجران ألفاظ مستعملة ، أو استعمال ألفاظ مهجورة ، ويكون ذلك بسعة المعنى أو تضييقه أو انتقاله ، وهذا بدوره يولد عدة ألفاظ لمعنى واحد ، أو عدة معان للفظ واحد ، أو وجود معنيين متضادين للفظ واحد .

أورد أبو حيان تعريفاً للترادف والاشتراك دون أن يذكرهما حيث يقول : " قد يوصف الشئ بأنه واحد بالمعنى وهو كثير بالأسماء ، ويوصف بأنه واحد بالاسم وهو كثير بالمعنى "[2] فالأول هو تعريف الترادف وهو : دلالة لفظين أو أكثر على معنى واحد . والاشتراك : وهو : دلالة اللفظ على معنيين أو أكثر على التساوى .

ومن الترادف ما أورده أبو حيان فى قول الشاعر :

إنى لأصفح عن قومى وألبسهم ... على الضغائن حتى تبرأ المثرُ

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ٨٨ .
(٢) السابق ١ / ٤٩ .

ثم قال : ما المِتر ؟ قلت : هى الضغائن التى ذكرها فى حشو البيت ، واحدها مترة ، كأنه أراد وألبسهم على الضغائن حتى تبرأ الضغائن ، فرجع من لفظ إلى لفظ ضرورة القافية لما كان معناهما واحداً [1] ".

ومن الترادف قوله " الضريبة ، والطبيعة ، والنعيتة ، والعزيزة ، والنحيزة ، والسجية ، والشيمة ، ثم العادة تالية لهذه كلها ، أو زائدة فيما نقص فيها ، وموقدة لما خمد منها "[2] ويؤكد الجوهرى هذا الترادف حيث يقول " الضريبة : الطبيعة والسجية ، تقول : فلان كريم الضريبة ، ولئيم الضريبة ، وكذلك تقول فى : النحيتة ، والسليقة ، والنحيزة ، والنوس ، والعزيزة ، والنِحاس ، والخِيم [3]".

ومن الترادف ما أورده أبو حيان " ويقال لولد كل بهيمة إذا ساء غذاؤه : جَحِن ، ومُحثل ، وجذعٌ ، ... ... والوغل والسغل كله السيئ الغذاء [4]".

ومن الترادف - أيضاً - قوله " يقال سغبل رأسه بالدهن ، وسغسغه ، ورواه ، وأمرعه[5]".

ومن الترادف قوله " الخليطة ، والنخيسة ، والقطية : أن يُحلب لبن الضأن على لبن المعزى ، والمعزى على لبن الضأن ، أو حلب النوق على لبن الضأن [6]".

(١) الإمتاع والمؤانسة ١ / ١٥٩ .
(٢) الصحاح [ضرب] .
(٣) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ٢٩ .
(٤) السابق ٣ / ٩ .
(٥) السابق ٣ / ٥٥ .
(٦) السابق ٣ / ١٧ .

ومن الاشتراك ما ورد فى شرح أبى حيان لبيت مهلهل :

إنا لنضرب بالسيوف رءوسهم ضرب القُدَار نقيعة القُدَّام

القُدَار : الجزار ، والقُدَار : الملك - أيضاً - ، والقُدَّام : رؤساء الجيوش والواحد : قادم [1]".

والاشتراك هنا لفظ القُدار يطلق على الملك والجزار وأورد ابن منظور أن معنى القُدّار : الطباخ ، وقيل الجزار ، وقيل الملك [2] " .

وأما التضاد ، وهو دلالة اللفظ على معنيين متضادين ، وقد أورد أبو حيان التضاد عندما سأله الوزير " ما معنى قولهم : امرأة عروب ؟ فكان من الجواب أن محمد بن يزيد قال : على ما حدثنا به أبو سعيد وابن السراج - إنه من الأضداد ، وهى المتحببة إلى زوجها ، وهى الفاسدة ، مأخوذ من قولهم : عَرِبت مَعِدته إذا فسدت [3] " .

ويؤكد هذا ابن منظور حيث يقول " العروب : المطيعة لزوجها ، المتحببة إليه . قال : والعروب - أيضاً - العاصية لزوجها ، الخائنة بفرجها ، الفاسدة فى نفسها وأنشد :

فما خلفٌ من أم عِمران سلقع من السُّوء ، ورهاء المَنانِ عَرُوب [3]

النظريات الدلالية :

من النظريات الدلالية " نظرية السياق " ، وهى التى تعنى أن اللغة فى

(١) لسان العرب [قدر] .
(٢) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ١٩٧ .
(٣) لسان العرب [عرب] .

المقام الأول جزء من نشاط اجتماعى متسق ، ومن ثم فإن الكلمة إذا عزلت عن سياق هذا النشاط الذى يغلفها ، أو عن سياق الموقف الذى تستخدم فيه تصبح وعاء فارغا من المعنى ، فالألفاظ لا يمكن أن توجد فى فراغ ، إن سر اللغة ليس هو الكلمة المفردة ، وإنما هو السياق الذى ترد فيه . فالسياق هو الذى يوضح المعنى الوظيفى لكل كلمة ، ويفرض عليها قيمة حضورية معينة ، فأية كلمة ليس لها معنى إلا معنى واحداً فى الوقت الواحد ، حيث إن معنى الكلمة فى المعجم متعدد ومحتمل ، ولكن معنى اللفظ فى السياق واحد لا يتعدد ؛ لأنه يوجد فى السياق قرائن تعين على اختيار معنى واحد من بين المعانى المختلفة التى نجدها للكلمة فى المعجم[1] .

وما يمثل هذه النظرية عند أبى حيان ما ورد فى المناظرة بين أبى سعيد السيرافى ومتّى بن يونس عندما قال أبو سعيد السيرافى " حدثنى عن الواو ما حكمه ؟ فإنى أريد أن أبين أن تفخيمك للمنطق لا يغنى عنك شيئاً ، وأنت تجهل حرفاً واحداً فى اللغة التى تدعو بها إلى حكمة يونان ، ومن جهل حرفاً أمكن أن يجهل حروفاً ، ومن جهل حروفاً جاز أن يجهل اللغة بكمالها[2] .

فلما عجز عنها متّى " قال أبو سعيد : للواو وجوه ومواقع : منها معنى العطف فى قولك " أكرمت زيداً وعمراً "، ومنها القسم فى قولك " والله لقد كان كذا وكذا " ومنها الاستئناف فى قولك " خرجت وزيدٌ قائم " ؛

(١) انظر علم اللغة بين التراث والمعاصرة د/ عاطف مذكور ص ٢٣٧ - ٢٣٨ طبع دار الثقافة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٨٧م .

(٢) الإمتاع والمؤانسة ١ / ١١٦ - ١١٧ .

لأن الكلام بعده ابتداء وخبر ، ومنها معنى رُبَّ التى هى للتقليل نحو قولهم " وقائم الأعماق خاوى المخترق " ومنها : أن تكون أصلية فى الاسم ، كقولك : واصل ، واقد ، وفى الفعل كذلك : كقولك : وجل يوجل . ومنها أن تكون مقحمة نحو قول الله عز وجل ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ ﴾ [1] أى : ناديناه ، ومثله قول الشاعر :

فلما أجزنا ساحة الحىّ وانتحى المعنى : انتحى بنا . ومنها معنى الحال فى قوله عز وجل ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾[2] أى يكلم الناس فى حال كهولته . ومنها أن تكون بمعنى حرف الجر ، كقولك : استوى الماء والخشبة أى مع الخشبة [3] " .

ففى هذا النص يوضح أبو سعيد السيرافى أن الواو التى هى حرف من حروف الهجاء تدل على معانى متعددة تبعاً للسياق الذى تقع فيه فتدل على العطف وعلى القسم ، وعلى الاستئناف ، ومعنى رُبَّ للتقليل ، وعلى الحال ، وتكون جارة ، وقد تكون أصلية فى بناء الكلمة وتكون زائدة . والذى يوضح ذلك كله هو السياق الذى تقع فيه ، ولولا سياق الكلام لما غادر معناها الدلالة على حرف من حروف الهجاء هو الواو .

ومن الألفاظ التى أوردها أبو حيان وتحدد معناها بالسياق لفظ " فعيل " وما جاء على وزنه عندما سأله الوزير : ما رأيت من يفى بإحصاء وجوه " فعيل " ومواقعها ؟ فأجاب أبو حيان : أن الأخفش قد ذكر عشرة

(١) سورة الصافات / ١٠٣ .

(٢) سورة آل عمران / ٤٦ .

(٣) الإمتاع والمؤانسة ١/ ١١٨ .

أوجه ، وهى أكثر ما قدر عليه ، والتصفح قد دلَّ على أربعين وجهاً زيادة .
قال : فما أغرب ما مر بك منها ؟ فقيل : فعيل بمعنى فَعَل ، فقال : هذا والله غريب فهات له شاهداً . فقيل : يقال : مكان دميث ، ودمث ، ويقين ويَقَن ، ورصيف ورَصَف ، وللفرس العتيد للعدو :العَتَد ، والنقيل من العدو : نَقَل والخيط من الورق : خَبَط ، وللقديم : قَدَم ، والبئر النزيح : نَزَح ، وللجسم العميم : عَمَم [1] " .

هذه المعانى التى ترد بها صيغة " فعيل " ما كان يتضح معناها لولا السياق الذى تقع فيه ، وهو الذى يحددها ويوضحها .

ومن النظريات الدلالية " النظرية التحليلية " والاتجاه التحليلى فى دراسة الكلمات ومعانيها مستويات متدرجة على النحو التالى :

١- تحليل كلمات كل حقل دلالى ، وبيان العلاقات بين معانيها .

٢- تحليل كلمات المشترك اللفظى إلى مكوناتها أو معانيها المتعددة .

٣- تحليل المعنى الواحد إلى عناصره التكوينية المميزة [2] .

كما أن " هناك جملة من الطرق الأخرى لتحديد المعنى ، أو توضيحه منها .

١- طريقة توضيح المعنى بذكر مرادفه ، أو أقرب لفظ إليه .

٢- طريقة تحديد المعنى وتوضيحه ببيان خصائص الشئ المعرف ،

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ٢٠٢ .
(٢) علم الدلالة د / أحمد مختار عمر ص ١١٤ طبع مكتبة دار العروبة - الكويت - سنة ١٩٨٢م .

أو بوضع تعريف له ، وهذه الطريقة تقرب من النظرية التحليلية التى تحاول حصر الخصائص التكوينية أو مجموع الملامح التى تشكل محتوى الكلمة.

٣- وقد يوضح المعنى عن طريق تقديم صورة ، أو نموذج للشئ المعرف وهذه الطريقة تستخدم فى الأشياء القابلة للتصوير والرسم .

٤- من الممكن تعريف الشئ بذكر أفراده [1].

وأبو حيان أورد المناهج فى توضيح المعنى فى نص لأبى سعيد السيرافى " وقدر اللفظ على المعنى فلا يفضل عنه ، وقدر المعنى على اللفظ فلا ينقص منه ، هذا إذا كنت فى تحقيق شئ على ما هو به ، فأما إذا حاولت فرش المعنى ، وبسط المراد فاجْلُ اللفظ بالروادف الموضحة والأشباه المقربة ، والاستعارات الممتعة ، وبين المعانى بالبلاغة ، أعنى لوّح منها لشئ حتى لا تصاب إلا بالبحث عنها والشوق إليها ؛ لأن المطلوب إذا ظفر به على هذا الوجه عزَّ وحلا ، وكرم وعلا ، واشرح منها شيئاً حتى لا يمكن أن يمترى فيه ، أو يُتعب فى فهمه، أو يُعرج عنه لاغتماضه، فهذا المذهب يكون جامعاً لحقائق الأشياء ، ولأشباه الحقائق "[2].

فأبو سعيد السيرافى يقول إذا أردت تحقيق الأمر وتوضيحه فليكن اللفظ على قدر المعنى ، والمعنى على قدر اللفظ ، ولكن إذا أردت توسيع المعنى فلتكن أسلحتك فى توضيح المعنى الروادف التى توضح المعنى وتقربه ، وكذلك الأشباه المقربة للمعنى والاستعارات التى تقرب

(١)انظر علم الدلالة د / أحمد مختار عمر ص ١٣٩ - ١٤١ .
(٢) الإمتاع والمؤانسة ١ / ١٢٥.

المعنى وتصوره فى ذهن السامع أو القارئ ، وهذه هى المناهج التى وضعها العلماء المحدثون لتوضيح المعنى وتحديده .

وعن اللذة المفادة عن طريق الاستعارة أو الكناية ، وكأنها الظفر يقول ابن خلدون " التركيب يدل بالوضع على معنى ، ثم ينتقل الذهن إلى لازمه أو ملزومه أو شبهه ، فيكون فيها مجازاً ، إما باستعارة أو كناية كما هو مقرر فى موضعه ، ويحصل للفكر بذلك الانتقال لذة كما تحصل فى الإفادة وأشد ؛ لأن فى جميعها ظفراً بالمدلول من دليله ، والظفر من أسباب اللذة [1].

الأسلوب والدلالة:

لاشك أن الأسلوب والدلالة متداخلان ومتكاملان حيث إن علم الأسلوب يبدأ " بدراسة الظاهرة الأسلوبية من السمات الأسلوبية المتفرقة فما فوقها ، باحثاً عن الدلالة دائماً ، حتى إذا وصل إلى النسق الأكبر كانت الدلالة اسمها الأسلوب [2] " .

كما ينبغى ألا ينظر إلى أن " علم الأسلوب " كما لو كان غريباً كل الغرابة عن البيئة الثقافية العربية ، بل إن تتبع النصوص التى ترجع إلى القرنين الثالث والرابع يدل على أن مفهوم الأسلوب اقترب من الوضع الاصطلاحى ، ربما أكثر من كلمة " البلاغة " نفسها ، التى ظلت مقصورة على وصف الكلام ، أو المتكلم ، ببلوغ الغاية فى إصابة الغرض [3]".

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٨٥١ .

(٢) اللغة والإبداع مبادئ علم الأسلوب العربى د/ شكرى محمد عياد ص ١٢٦ الطبعة الأولى سنة ١٩٨٨م .

(٣) السابق ص١٥

ولقد عبر أبو حيان عن الأسلوب بالبلاغة على لسان أبى سليمان فى قوله " وقال أبو سليمان : البلاغة ضروب : فمنها بلاغة الشعر ، ومنها بلاغة الخطابة ومنها بلاغة النثر ، ومنها بلاغة المثل ، ومنها بلاغة العقل ، ومنها بلاغة البديهة ، ومنها بلاغة التأويل [1]".

وأبو حيان فى هذا يعنى بقوله " بلاغة " الأسلوب فهناك أسلوب للشعر ، وآخر للخطابة وثالث للنثر ، ورابع للمثل ، ومنها ما يظهر فيه العمل العقلى ، وآخر تظهر فيه البداهة ومنها ما يحتاج إلى تأويل ، وآخر ظاهر بيِّن . وفى كل هذه الأساليب العماد الأساسى هو المعنى ، وعن ذلك يقول ابن خلدون " أعلم أن الكلام الذى هو العبارة والخطاب ، إنما سره وروحه فى إفادة المعنى ، وأما إذا كان مهملاً فهو كالموات الذى لا عبرة به . وكمال الإفادة هو البلاغة على ما عرفت من حدّها عند أهل البيان ؛ لأنهم يقولون : هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ومعرفة الشروط والأحكام التى بها تطابق التراكيب اللفظية مقتضى الحال[2].

ويوضح ابن خلدون فى موضع آخر أن اختلاف الأساليب فى النظم والنثر تكون فى الألفاظ والمعانى تبع للألفاظ حيث يقول " اعلم أن صناعة الكلام نظماً ونثراً إنما هى فى الألفاظ لا فى المعانى ، وإنما المعانى تبع لها وهى أصلٌ ... ... وتأليف الكلام للعبارة هو المحتاج للصناعة ، وهو بمثابة القوالب للمعانى ، فكما أن الأوانى التى يُغترف بها

(١) الامتاع والمؤانسة ٢/ ١٤٠-١٤١.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥٨١.

الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة ، والصدف ، والزجاج ، والخزف ، والماء واحد فى نفسه ، وتختلف الجودة فى الأوانى المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء ، كذلك جودة اللغة وبلاغتها فى الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام فى تأليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد ، والمعانى واحدة فى نفسها [1] ".

ويوضح ابن خلدون الأسلوب بقوله " مدلول لفظة الأسلوب عند أهل هذه الصناعة ، وما يريدون بها فى إطلاقهم ، فأعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذى تنسج فيه التراكيب ، أو القالب الذى يفرغ فيه "[2] ويوضح أن كل فن له أسلوبه المختص به فيقول " لكل واحد من هذه الفنون أساليب تختص به عند أهله لا تصلح للفن الآخر ، ولا تستعمل فيه، مثل النسيب المختص بالشعر ، والحمد والدعاء المختص بالخطب ، والدعاء المختص بالمخاطبات ، وأمثال ذلك [3]".

ويوضح أبو حيان أسلوب كل فن حيث يقول " فأما بلاغة الشعر فأن يكون نحوه مقبولاً ، والمعنى من كل ناحية مكشوفاً ، واللفظ من الغريب بريئاً ، والكناية لطيفة ، والتصريح احتجاجاً ، والمؤاخاة موجودة ، والمواءمة ظاهرة [3] ".

فأبو حيان عندما يقول " أن يكون نحوه مقبولاً " يعنى أن الشاعر يضطر لمجاوزة القاعدة اللغوية لإقامة الوزن ، ولكن يجب أن يكون ذلك

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٧٦-٥٧٧

(٢) السابق ص٥٦٩.

(٣) السابق ص ٥٦٦.

(٤) الامتاع والمؤانسة ٢/ ١٤١.

قليلاً حتى لا يخل بشعره ولذلك قالوا " فى محاولة التوفيق بين الأوزان الشعرية والتراكيب اللغوية ، يضطر الشاعر إلى إحدى اثنين " إما أن يجور على الأوزان فتنشأ العلل والزحاف ، وإما أن يجور على الكلمات فتنشأ الضرورات ، أو الضرائر التى تجوز للشاعر دون الناثر ، ومعنى ذلك أن أسلوب الشاعر يمتاز بجواز قصر الممدود ، وتحريك الساكن وعكسه ، ومنع المصروف وصرف الممنوع ، ومجاوزة بعض القوانين النحوية ، كل ذلك قصد الملاءمة بين موسيقى الوزن ، وحركات العبارة[1]

وإن كان الشعر يختلف باختلاف أغراضه فى تناول الألفاظ والعبارات " فالفن الشعرى الواحد يختلف أسلوبه باختلاف معانيه وأنواعه ، فالنسيب الوصفى ، يخالف الشاكى الحزين أو الثائر ، وكليهما يختلف عن القصص ، ونحو ذلك يقال فى المديح ، والحماسة ، والهجاء ، ... ... إن هذا الاختلاف العام الذى نشعر به فى الأساليب يبدو فى الكلمات ، والصور ، والتراكيب ، والعبارات ، مع طيف موسيقى عام ، هو فى الأصل من عبقرية الشاعر وموسيقى نفسه الشاعرة [2] ".

ولابد أن يكون المعنى واضحاً ، بعيداً عن الحوشى والغريب ، مع استخدام الألوان البلاغية لرسم الصورة فى ذهن السامع فى غير تمحل أو مغالاة ، حتى تكون القصيدة كبناء واحد لو اختل منه بيت كان ظاهراً للسامع ، اختلال المعنى ، وهذا ما قصده أبو حيان فى قوله " والمعنى من

(١) الأسلوب د/ احمد الشايب ص ٧٠ .

(٢) السابق ص ٧٧.

كل ناحية مكشوفاً ، واللفظ فى الغريب بريئاً ، والكناية لطيفة ، و التصريح احتجاجاً ، والمؤاخاة موجودة ، والمواءمة ظاهرة "فالأسلوب فى الشعر فيه " الكلمات رشيقة ذات جرس خاص ، تحكى صوت الطبيعة التى تصفها ، والألوان التى تصورها ، والجمل موجزة مقسمة حرّة فى تكوين عناصرها تخضع لشيئين : الصحة النحوية ، والموسيقى الأدبية [1]" أى أنه " يجب أن تكون التراكيب والعبارات ذات نغمة عامة ملائمة لما يوصف سواء أكان منظراً رائعاً يبعث الإعجاب ، أم معركة حامية تثير الرهبة ، أو حوادث متتابعة تملك العقل ، أو يأساً قاتلاً أم أملاً عريضاً ، بحيث يكون الأسلوب اللفظى حكاية الأسلوب المعنوى ، ويتحقق بذلك ائتلاف اللفظ والمعنى [2]" .

وقد حدد الدكتور / أحمد الشايب الأمور التى تساعد فى تحقيق الدقة وتحديد الأفكار فقال :اختيار الكلمات المعينة غير المشتركة بين معانٍ ، والتى تدل على الفكرة كاملة ، وذلك يدعو إلى ملاحظة هذه الفروق بين ما تسمى المترادفات حتى لا يصير المعنى ذاهب المعالم من ذلك : العاطفة والانفعال ، والسقم والمرض ... ٢- يحسن بالأديب الاستعانة بالعناصر الشارحة ، أو المقيدة ، أو المخيلة ، كالنعت ، والمضاف إليه ، والحال ، والتمييز والاستثناء ، فذلك من عوامل إيضاح المعانى وتحديدها ... ٣- ومما يساعد فى وضوح الفكرة استعمال الكلمات المتقابلة المتضادة المعانى ، ... ٤- البعد عن الغريب الوحشى ، والعمد إلى لغة الناس ، وما يستطيعون إدراكه ، وذلك يختلف باختلاف

(١) الأسلوب د/ أحمد الشايب ص ٧٥ .
(٢) السابق ص ١٠٦ .

العصور ، وطبقات الناس ، فلكل لفظ مستوى أليق به ، وعكس ذلك حيلولة بين المعنى والقراء أو السامعين ، ولكل مقام مقال ... ٥- ثم المصطلحات العلمية ، والفنية ، والاجتماعية ، والتاريخية التى وضعت لمعان خاصة محدودة لتكون بين الكتاب والقراء ، علامات واضحة وروابط عقلية مشتركة [1]".

وأما عن أسلوب الخطابة يقول أبو حيان " وأما بلاغة الخطابة ،فأن يكون اللفظ قريباً ، والإشارة فيها غالبة ، والسجع عليها مستولياً ، والوهم فى أضغانها سابحاً ، وتكون فقرها قصاراً ، ويكون ركابها شوارد إبل [2] "

أول خصائص الأسلوب الخطابى أن يكون اللفظ سهلاً مفهوماً قريباً فى تحصيله وفهمه " يجب أن تكون العبارة سهلة مفهومة للسامعين ، خالية من الإغراب أو التعقيد حتى يستطيع الجمهور متابعة الخطيب ومسايرته ؛ إذ ليست هناك فرصة للسامعين سوى لحظات الاستماع ، ولا يستطيعون إيقاف الخطيب ليفهموا عنه ، ولا يملك هو سوى فرصة الإلقاء ؛ فإن الخطابة فن شفوى ، على أنه إذا كتب نقص بهاؤه ، وربما مضت ظروفه المناسبة فضاعت فائدته [3]".

ثانى خصائص الأسلوب الخطابى استخدام الإشارة ، وهذه من العوامل الحسية التى يستخدمها الخطيب لتوصيل المعنى وترسيخه " فإن الخطيب يستخدم جسمه فى الخطابة ، فيشير بيديه ، ويحرك رأسه ،

(١) انظر الأسلوب د/ أحمد الشايب ص ١٨٨ - ١٩٠ .
(٢) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ١٤١ .
(٣) الأسلوب د/ أحمد الشايب ص ١١٩ .

ويشكل أسارير وجهه ، وكل هذه الحركات عنصر هام فى التأثير الخطابى حتى إذا قرئت الخطبة مكتوبة كانت فاقدة هذا العنصر الجسمانى ، مع صوت الخطيب ، وحسن إلقائه ، فيذهب شئ من روعتها وقوتها الإنشائية[1].

ثالثها : استخدام السجع الذى يوضح قوة الخطابة ، وانفعال الخطيب وتمكنه من اللغة " الصفة العامة للأسلوب الخطابى هى القوة ، ومصدرها الأول انفعال الخطيب ، وقوة عقيدته ويقينه بما يقول ، ثم تظهر فى عباراته المسجوعة ، أو المزدوجة وكلماتها المؤثرة الجزلة ؛ لتكون موسيقى قوية ، على تفاوت فى ذلك [2] ".

رابعها : الوهم فى أضعافها سابحاً ويعنى به استخدام الخيال والقصص وتغاير الأسلوب حيث يستخدم القصص والوصف الموجزين يستعين بهما الخطيب فى الإقناع والتأثير ، مع اختلاف الأسلوب فيكون خبراً ، وأمراً ونهياً ، واستفهاماً ، وتفجعاً ، حتى لا يكون رتيباً ، وليمثل الانفعالات اللازمة للخطابة ، والتى تمتلئ بها نفس الخطيب [3].

خامسها : قصر الفقرات ، وذلك حتى يجعل السامع متابعاً له شاداً لأنظاره ، لا يدعه يهرب لطول الفقرة ، فمثله كراكب لشوارد الإبل يخشى منها النفور والهرب مرة أخرى ، فهو حريص ومنتبه لكل حركاتها ماسكاً بأزمة خطامها ، والفقرات القصيرة أكثر تأثيراً ، وأقدر فى استخدام السجع.

(١) الأسلوب ، د/ أحمد الشايب ، ص١١٨.
(٢) الأسلوب د / أحمد الشايب ص ١١٨ .
(٣) السابق ص ١١٨ - ١١٩ .

وعن أسلوب الخطابة يقول ابن قتيبة " فالخطيب من العرب إذا ارتجل كلاماً فى نكاح ، أو حماله - دية أو غرامة - أو تخفيض ، أو صلح ، أو ما أشبه ذلك ، لم يأت به من واد واحد ، بل يفتن ، فيختصر تارة إرادة التخفيف ويطيل تارة إرادة الإفهام ، ويكرر تارة إرادة التوكيد ، ويخفى بعض معانية حتى يغمض على أكثر السامعين ، ويكشف بعضها حتى يفهمه بعض الأعجميين ، ويشير إلى الشئ ، ويكنى عن الشئ ، وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال ، وقدر الحفل ، وكثرة الحشد ، وجلالة المقام ، ثم لا يأتى بالكلام كله مهذباً كل التهذيب ، ومصفى كل التصفية ، بل تجده يمزج ، ويشوب - يخلط - ليدل بالناقص على الوافر ، وبالغث على السمين ، ولو جعله كله نجراً - لونا - واحدا لنخسه بهاءه ، وسلبه ماءه[1]".

وعن أسلوب النثر يقول أبو حيان " وأما بلاغة النثر ، فأن يكون اللفظ متناولاً ، والمعنى مشهوراً ، والتهذيب مستعملاً ، والتأليف سهلاً ، والمراد سليماً ، والرونق عالياً ، والحواشى دقيقة ، والصفائح مصقولة ،والأمثلة خفيفة المأخذ ، والهوادى متصلة ، والأعجاز مفصّلة [2]»

النثر والشعر هما طرفا التأليف فى اللغة ، أما وقد تعرفنا على الأسلوب الشعرى ، فإن أبا حيان عرج على أسلوب النثر وأوضح أن النثر بفنونه المختلفة من مقالة وخطبة وقصة ورواية ، وسيرة ، ومناظرة وجدل ، وتأليف وتاريخ ، ووصف ، ومقامة ، ورسالة ، يحتاج إلى أن يكون

(١) تأول مشكل القرآن لابن قتيبة ص ١٣ تحقيق السيد أحمد صقر.
(٢) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ١٤١.

اللفظ مستعملاً ، ومتداولاً ، ومعناه واضحاً مشهوراً ، ويكون التأليف بين جمله وعباراته وفقره متكاملاً وسهلاً يظهر من خلاله مراد المؤلف وقصده دون إغراب أو تأويل ، جمله واضحة ، ومعانيه متكاملة و" الخطوة الأولى للكاتب إنما هى اختيار الفن الأدبى الذى يعتمد عليه لأداء ما فى نفسه من المعانى ، فهو مقالة أو قصيدة ، أو رسالة ، أو قصة ، أو خطابة عامة ، أو محاضرة ، أو كتاب مؤلف ، وبعد ذلك يختار المعانى والأفكار والحقائق التى يعتبرها هامة جديرة بموضوعه لجدتها ، أو قوة تأثيرها ، أو ملاءمتها لقرائه وسامعيه ، ثم يرتب هذه الأفكار ترتيباً يصل به إلى نتائجها المرادة ، سواء اختار طريقة التحليل أم التركيب ، فإذا انتقل من ذلك إلى التعبير عنه بعبارات واضحة تكشف عنه فقد تكون له الأسلوب العلمى أو الأدبى بمعناه العام[1]"

وعن الفرق بين أسلوب الشعر والنثر يقول ابن خلدون " واعلم أن لكل واحد من هذه الفنون أساليب تختص به عند أهله لا تصلح للفن الآخر ، ولا تستعمل فيه ، مثل النسيب المختص بالشعر ، والحمد والدعاء المختص بالخطب ، والدعاء المختص بالمخاطبات وأمثال ذلك [2]" .

ثم يوضح ابن خلدون متى يكون الكلام مطبوعاً حيث يقول" الكلام المطبوع : يعنون به الكلام الذى كملت طبيعته وسجيته من إفادة مدلوله المقصود منه؛ لأنه عبارة وخطاب ليس المقصود منه النطق فقط، بل المتكلم

(١) الأسلوب د / أحمد الشايب ص ٥٠.

(٢) المقدمة لابن خلدون ص ٥٦٦.

يقصد به أن يفيد سامعه ما فى ضميره إفادة تامة ، ويدل به عليه دلالة وثيقة ، ثم يتبع تراكيب الكلام فى هذه السجية التى له بالأصالة ضروب من التحسين والتزيين ، بعد كمال الإفادة وكأنها تعطيها رونق الفصاحة من تنميق الأسجاع ، والموازنة بين حمل الكلام وتقسيمه بالأقسام المختلفة الأحكام والتورية باللفظ المشترك عن الخفى من معانيه ، والمطابقة بين المتضادات ؛ ليقع التجانس بين الألفاظ والمعانى ، فيحصل للكلام رونق ولذة فى الأسماع ، وحلاوة وجمال كلها زائدة على الإفادة [1] " .

وهذا ابن الأثير يرى أن النظم والنثر له آلات يعتمد عليها من العلوم والفنون ولا يمكن للعلوم والمعارف أن تفيد إذا لم يكن هناك طبع يستطيع أن يفيد من هذه العلوم حيث يقول " أعلم أن صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تفتقر إلى آلات كثيرة . وقد قيل : ينبغى للكاتب أن يتعلق بكل علم ، حتى قيل : كل ذى علم يسوغ له أن ينسب نفسه إليه ، فيقال فلان النحوى ، وفلان الفقيه ، وفلان المتكلم ، ولا يسوغ له أن ينسب نفسه إلى الكتابة فيقال : فلان الكاتب وذلك لما يفتقر إليه من الخوض فى كل فن، وملاك هذا كله الطبع ، فإنه إذا لم يكن ثمَّ طبعٌ فإنه لا تغنى تلك الآلات شيئاً [2]"

ويوضح ابن الأثير الآلات التى إذا اقترنت بالطبع أخرجت بياناً وجمالاً حيث يقول :

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٨١ - ٥٨٢ .

(٢) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ١ / ٣٨ تحقيق د / أحمد الحوفى و د/ بدوى طبانة .

"شيئان لا نهاية لهما : البيان والجمال . وعلى هذا فإذا ركب الله تعالى فى الإنسان طبعاً قابلاً لهذا الفن فيفتقر حينئذ إلى ثمانية أنواع من الآلات :

النوع الأول : معرفة علم العربية من النحو والتصريف . النوع الثانى : معرفة ما يحتاج إليه من اللغة ، وهو المتداول المألوف استعماله فى فصيح الكلام غير الوحشى الغريب ، ولا المستكره المعيب . النوع الثالث : معرفة أمثال العرب وأيامهم . ومعرفة الوقائع التى جاءت فى حوادث خاصة بأقوام ، فإن ذلك جرى مجرى الأمثال أيضاً . النوع الرابع : الاطلاع على تأليفات من تقدمه من أرباب هذه الصناعات المنظومة منه والمنثورة ، والحفظ للكثير منه . النوع الخامس : معرفة الأحكام السلطانية فى الإمامة والإمارة والقضاء والحسبة وغير ذلك . النوع السادس : حفظ القرآن الكريم ، والتدرب باستعماله وإدراجه فى مطاوى كلامه . النوع السابع : حفظ ما يحتاج إليه من الأخبار الواردة عن النبيﷺ، والسلوك بها مسلك القرآن الكريم فى الاستعمال . النوع الثامن : وهو مختص بالناظم دون الناثر ، وذلك علم العروض والقوافى الذى يقام به ميزان الشعر "[1].

وأما عن أسلوب المثل يقول أبو حيان " أما بلاغة المثل فأن يكون اللفظ مقتضباً ، والحذف محتملاً ،والصورة محفوظة ، والمرمى لطيفاً ، والتلويح كافياً ، والإشارة مغنية ، والعبارة سائرة [2]".

(١) المثل السائر ١ / ٤٠ - ٤١ .
(٢) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ١٤١ .

"تصدر الأمثال عن الشيوخ والحكماء فى أكثر الأحيان ، فتوجز التجربة فى كلمات ، وتغنى بهذا الإيجاز عن سرد طويل ، وقد يكون التصريح غير مرغوب فيه ، أو يحسن التورية عنه ، ويقوم التلميح مقام التصريح كقولهم " إياك أعنى واسمعى يا جارة " ، وقد يكون المثل فى قصره وإيجاز بالغ الدلالة قوى التأثير كقول على رضى الله عنه فى أحلك ساعات الفتنة " إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض " يعنى بهذا أضعف الأقوياء حين يأخذهم الأعداء فرادى ... وكما تعلق الأشعار بالأذهان بسبب الوزن والقافية ، تعلق الأمثال لقصرها ، وتقبل الناس على أنها أثر من الأجداد ، ونتيجة تجربة من وراء الأجيال ، وسهولة التورية فيها ، وقد يكون فى المثل غموض فيلقى كما وعته الأسماع اكتفاء بدلالته التى يظهرها السياق أو ما تضفيه المناسبة من عون فى فهمه جملة دون وعى لمفردات قد تكون أعلاماً بَعُدَ بها الزمن لأناس أو لأماكن ، فإذا تساءلت عن بيانه وما كان من أمره سمعت تاريخاً من حياة العرب وعاداتهم قد يكون صحيحاً وقد يكون خلقاً أدبياً خلق لساعته [1] "

ويعرف الكفوى المثل بقوله " المثل : بفتحتين لغة : اسم لنوع من الكلام ، وهو ما ترضاه العامة والخاصة لتعريف الشئ بغير ما وضع له من اللفظ ، يستعمل فى السراء والضّراء[2] " .

والأمثال فى القرآن الكريم للاعتبار والعظة " روى البيهقى عن أبى

(١) مصادر اللغة د / عبد الحميد الشلقانى ص ١٨٩ - ١٩٠،
(٢) الكليات ٤ / ٢٦٨ .

هريرة أن رسول الله ﷺ قال : "إن القرآن نزل على خمسة أوجه : حلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال ، فاعملوا بالحلال ، واجتنبوا الحرام ، واتبعوا المحكم وآمنوا بالمتشابه واعتبروا بالأمثال " ... ... .وضرب الأمثال فى القرآن يستفاد منه أمور كثيرة : التذكير ، والوعظ ، والحث ، والزجر ، والاعتبار ، والتقرير ، وترتيب المراد للعقل ، وتصويره فى صورة المحسوس ، بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس ، وتأتى أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر ، وعلى المدح والذم ، وعلى الثواب والعقاب ، وعلى تفخيم الأمر ، أو تحقيره ، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر(١)»

وقسم أبو عبد الله البكراباذى الأمثال أربعة أوجه وهى : " أحدها : إخراج ما لا يقع عليه الحس إلى ما يقع عليه . وثانيها : إخراج ما لا يعلم ببديهة العقل إلى ما يُعلم بالبديهة ، وثالثها : إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة ، ورابعها : إخراج ما لا قوة له من الصفة إلى ماله قوة(٢)»

ومن حكمة المثل : تعليم البيان ، والمثل أعون شئ على البيان ؛ لأنها تصور المعانى تصور الأشخاص ، فإن الأشخاص والأعيان أثبت فى الأذهان ؛ لاستعانة الذهن فيها بالحواس ، بخلاف المعانى المعقولة ؛ فإنها مجردة عن الحس ، ولذلك دقّت ، ولا ينتظم مقصود التشبيه

(١) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ١ / ٤٨٦ - ٤٨٧ .
(٢) السابق ١ / ١٨٦ .

والتمثيل إلا بأن يكون المثل المضروب مجرباً مسلماً عند السامع . وفى ضرب الأمثال من تقرير المقصود ما لا يخفى ؛ إذ الغرض من المثل : تشبيه الخفى بالجلى ، والشاهد بالغائب ، فالمرغب فى الإيمان مثلاً إذا مُثّل له بالنور تأكد قلبه بالمقصود ، والمزهد فى الكفر إذا مُثّل له بالظلمة تأكد قبحه فى نفسه ... ...

قال الزمخشرى : التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعانى ، وإدناء المتوهَّم من الشاهد ، فإن كان المتمثل له عظيماً كان المتمثل به مثله ، وإن كان حقيراً كان المتمثل به كذلك ، فليس العظم والحقارة فى المضروب به المثل إلا بأمر استدعته حال المتمثل له ، ألا ترى أن الحق لما كان واضحاً جلياً تمثل له الضياء والنور، وأن الباطل لما كان بضده تمثل له بالظلمة وكذلك جُعل بيت العنكبوت مثلاً فى الوهن والضعف (١)»

ولذلك قال أبو حيان إن أسلوب المثل لفظه مقتضبٌ موجزٌ حتى يحفظ ، ولا شك أن الحذف عامل من عوامل إيجازه ، ومن أهميته فى البيان تقريب الفهم بالصورة الرابطة بين المثل والمتمثل له ، والإيجاز : يغنى فيه التلويح أو الإشارة فى عبارة واضحة مفهومة بعيدة عن الإغراب والتعقيد .

وأما أسلوب التأويل ، وهو ما يحتاج فيه إلى توضيح وبيان وتحليل ، وهذا ما يكون مجال التفاضل والتنافس بين العلماء وعن ذلك يقول أبو

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشى ١/ ٤٨٨ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. طبع دار التراث بالقاهرة

حيان " وأما بلاغة التأويل فهى التى تحوج لغموضها إلى التدبر والتصفح ، وهذان يفيدان من المسموع وجوهاً مختلفة كثيرة نافعة ، وبهذه البلاغة يُتَّبع فى أسرار معانى الدين والدنيا ، وهى التى تأولها العلماء بالاستنباط من كلام الله عز وجل وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم فى الحرام والحلال ، والحظر والإباحة ، والأمر والنهى ، وغير ذلك مما يكثر ، وبها تفاضلوا ، وعليها تجادلوا ، وفيها تنافسوا ومنها استملوا ، وبها اشتغلوا ، ولقد فُقدت هذه البلاغة لفقد الروح كله ، وبطل الاستنباط أوله وآخره ، وجولان النفس واعتصار الفكر إنما يكونان بهذا النمط فى أعماق هذا الفن ، وهاهنا تنتال الفوائد ، وتكثر العجائب ، وتتلاقح الخواطر ، وتتلاحق الهمم ، ومن أجلها يُستعان بقوى البلاغات المتقدمة بالصفات الممثلة حتى تكون مُعينة ، ورافدة فى إثارة المعنى المدفون ، وإثارة المراد المخزون [1]".

التأويل كما يقول الكفوى : بيان أحد محتملات اللفظ ، أو ما يتعلق بالدراية ، وأكثر استعمالاته فى المعانى والجمل [2] " ويقول عنه التهانوى " اللفظ المجمل إذا لحقه البيان بدليل ظنى كخبر الواحد يسمى مؤولاً ، وإذا لحقه البيان بدليل قطعى يسمى مفسراً"[3] وأوضح الدكتور الشلقانى فى الحديث عن كتاب تأويل مشكل القرآن كواحد من مصادر اللغة فى شروح معانى القرآن الكريم ، أنه اعتمد على اللغة فى تفنيد آراء الملاحدة

(١) الإتباع والمؤانسة ٢ / ١٤٢ - ١٤٣ .
(٢) انظر الكليات ٢ / ١٦ .
(٣) كشاف اصطلاحات الفنون ١ / ١٢٨ .

حيث يقول " فجاء كتابه كتاب لغة فى أكثر صفحاته ، وكان عليه قبل أن يأخذ فى تفنيد جميع حجج الملاحدة أن يكشف عن أسرار العربية والوجوه التى غمت على أكثرهم ، ثم يأخذ فى توجيه معانى القرآن على الوجه الذى تعنيه العرب وطريقتهم فى القول[1]" وكذلك يقول أبو حيان عن أسلوب التأويل بأنه " بلاغة التأويل فهى التى تحوج لغموضها إلى التدبر والتصفح. وهذا الأسلوب يفسح المجال للتفاضل ، والمجادلة ، والمنافسة ، وكذلك القدرة على استنباط الحلال والحرام ، والحظر والإباحة ، والأمر والنهى وغيره من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ .

ويرى علماء الأسلوب أن ما يحتاج من الأسلوب إلى تخيل وتأويل ينطوى على قوة فى التصوير من أساليب البلاغة " ويراد بالصورة القوية ما تتجاوز بالعقل معناها الحرفى إلى المعنى أو معانٍ أخرى مجازية أو غيرها ، وذلك يكون بالتمثيل ، والكناية ، والاستعارة ، من كل ما يفتح أمام القارئ آفاقاً من التفكير ، أو التخييل[2]".

وإن كان أبو حيان قد أفرد لكل نوع أسلوباً ، إلا أنه فى أسلوب التأويل يقول " ومن أجلها يستعان بقوى البلاغات المتقدمة ، بالصفات المتمثلة حتى تكون معينة ، ورافدة فى إثارة المعنى المدفون ، وإثارة المراد المخزون ".

أى أن صفات الأساليب متداخلة ومتعاونة " أشبه شئ بأنغام الموسيقى أو أدواتها ، فكما أن هذه لابد من تعاونها وتآلفها لتكوين نغمة

(١) مصادر اللغة ص ٣٧ .
(٢) الأسلوب د/ أحمد الشايب ص ١٩٥ .

تلائم الدور الملحن موضوعاً وغاية ، كذلك لابد من تآزر هذه الصفات وتناسقها حتى يكون الأسلوب متزناً كاملاً ، يغذى العقل ، والشعور ، ويرضى نواحى النفس الإنسانية معبراً عنها أو مؤثراً فيها ؛ لأن الأسلوب الواضح الذى تعوزه قوة العاطفة يكون بليداً فاتراً ، وإذا لم يظفر بالخيال الجميل كان جافاً ، وتجد ذلك عند من يعنون بالسهولة أكثر من سواها ... والأسلوب القوى الذى فقد التفكير الواضح ثرثرة فارغة ، والذى ألغى قيمة الذوق الجميل ، والتناسب الدقيق ، صعب جامد ... ... أما الأسلوب الحريص على جمال الصور أو الصوت غير مبال بهذه البساطة الواضحة فإنه يكون زهيداً ،فإذا لم يُعن بالعقيدة القوية والإرادة الصارمة عاد وهماً ميتاً ، كما بدا ذلك فى عصور الانحطاط ، وأساس النجاح ألاّ يسمح الأديب لصفة بالحياة على فناء الأخرى ، بل لابد من توفيرها جميعاً، وحفظ التوازن بينها بدرجة تجعل الأسلوب قائماً بواجبه خير قيام، وذلك لا يكلف الأديب أكثر من يقظة نفسية ، ويراعة أسلوبية ، وصدق فى الأداء، فنجد روحه ضاربة فى أسلوب ، تحيا فيه ولو أدركه الممات[1]»

الدلالة وتناوب الحروف الجارة:

لقد اختلف النحاة فى تناوب حروف الجر " البصريون يمنعون إنابة بعض الحروف الجارة عن بعض قياساً ، كما لا تنوب حروف الجزم والنصب بعضها عن بعض ، وما أوهم ذلك محمول على تضمين الفعل معنى فعل

(١) الأسلوب د/ أحمد الشايب ، ص٢٠٣.

يتعدى بذلك الحرف ، أو على شذوذ النيابة ، والكوفيون يجوزون نيابة بعضها عن بعض قياساً ، وقد رجح ابن هشام مذهبهم فقال " ومذهبهم أقلّ تعسفاً "»[1]وقد حكم بعدم تعسفه -أيضاً - علاء الدين الإربلى حيث يقول " ولا تعسف فى حمل بعض حروف الجر على بعض "[2]والصولى وصفه بأنه كثير جداً فى اللغة حيث يقول " وحروف الخفض ينقل بعضها من بعض ، قال الله عز وجل ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[3] أى على جذوع النخل ، وقال الشاعر :

إذا رضيت علىّ بنوقشير لعمر الله أعجبنى رضاها

وهذا كثير جداً "[4]

وأبو حيان التوحيدى فى هذا الجانب أورد أن تناوب الحروف يحكمه السماع وليس القياس ، وأنه جائز حيث يقول " هل يقال : ظفرت عليه ؟ قلت : قد قال شاعرهم :

وكانت قريش لو ظفرنا عليهم شفاءً لما فى الصدر والنقص ظاهر

قال : هذا حسن . قلت : الحروف التى تتعدى إلى الأفعال ، والأفعال التى تتعدى بالحروف ؛ يراعى فيها السماع فقط لا القياس .

هذا كان مذهب إمامنا أبى سعيد ؛ وقد جاء أيضاً " ظفر به " وجاء " سخرت به ومنه " ومن لا اتساع له فى مذهب العرب يظن أن " سخرت به " لا يجوز وهو صحيح . حكاه أبو زيد "[5] .

(١) من وحي القرآن د/ إبراهيم السامرائى ، ص١١١.
(٢) جواهر الأدب في معرفة كلام العرب لعلاء الدين الإربلى ،ص٢٨١.
(٣) سورة طه/ ٧١ . (٤) أدب الكتاب للصولى ص ١٤٥ .
(٥) الإمتاع والمؤانسة ١/ ٢٢٠ - ٢٢١ .

وعن تعدى الفعل ظفر بعلى أورد الفيومى " ظفر بعدوه ، وأظفرته به ، وأظفرته عليه بمعنى "[1]وعن تعدى الفعل " سخر " بالباء يقول " سخرت منه وبه قاله الأزهرى "[2]ونقل ابن منظور عن الأخفش " تقول العرب : ظفرت عليه فى معنى ظفرت به " [3].

وعن " سخر " يقول ابن منظور " الفراء : يقال سخرت منه ، ولا يقال سخرت به ... وسخرت من فلان هى اللغة الفصيحة ... ... الجوهرى : حكى أبو زيد : سخرت به :وهو أردأ اللغتين . قال الأخفش : سخرت منه، وسخرت به ، وضحكت به ، وهزئت منه ، وهزئت به ، كلٌّ يقال "[4] وهذا يدل على أن بعض العلماء جعل تناوب الحروف من قبيل اختلاف اللهجات ، وبعضهم يرى أن ذلك من اتساع لغة العرب ، واللغة تحتمل ذلك ولا تنفيه ، وورد ذلك على ألسنة العرب فى شعرهم ونثرهم ، وفوق ذلك وقبله ورد فى القرآن الكريم .

وبعد،

فهذه سياحة فى كتاب الإمتاع والمؤانسة استخلصنا من خلالها الدلالة عند أبى حيان التوحيدى والتى أبرز فيها رأيه فى النحو وعلاقته بالدلالة ، وأن النحو هو عناية بالمعنى قبل أن يكون رصاً للألفاظ ، كما أنه أكد أن اللفظ والمعنى مرتبطان وأن أفضل الأساليب ما كان اللفظ فيه

(١) المصباح المنير [ظفر] .
(٢) السابق [سخر] .
(٣) لسان العرب [ظفر] .
(٤) السابق [سخر] .

على قدر المعنى ، وأظهر أبو حيان دور العقل فى اللفظ والمعنى ،وأنه كالشمس لجميع المخلوقات ، فمرور اللفظ على العقل يجعله صواباً ، وغيابه عن العقل يجعله خطأ . وأظهر عوامل التطور الدلالى وأنواع الدلالة ، والنظريات الدلالية التى تسبق تصور المحدثين لها ، وكذلك الأسلوب وعلاقته بالدلالة ، والحروف الجارة وتناوبها وعلاقة ذلك بالدلالة .

ومن أبرز النتائج فى هذا البحث:

١- إن أبا حيان سبق العالم اللغوى " تشومسكى " فى الاعتماد على العقل فى اللغة فما يراه العقل صحيحاً هو الصحيح وما يراه خطأ فهو خطأ .

٢-كذلك سبق أبو حيان المحدثين فى التنبيه على بعض النظريات اللغوية مثل نظرية السياق ونظرية التحليل اللغوى .

٣-تأكيده على أن اللغة العربية لا تفصل بين اللفظ و المعنى ، بل هما كجانبى العملة إذا فسد أحدهما فسد التعامل بها .

٤-توضيحه أن اللغة المكتوبة لم تكن كالمسموعة فى التفاعل والتواصل والعاطفة ، بل أنه وصف المكتوبة بأنها موات والمسموعة بأنها أغض وأهنأ وأمرأ لما فيها من المذاكرة و المناظرة .

٥-تأكيده على العلاقة الرابطة بين النحو والدلالة وأن الإعراب فرع المعنى.

المصادر والمراجع

١- أدب الكاتب لأبى عبد الله بن مسلم بن قتيبة - تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٦٣م .

٢- أدب الكتّاب لأبى بكر محمد بن يحى الصولى - تصحيح محمد بهجة الأثرى - دار الباز للطباعة والنشر - مكة المكرمة سنة ١٣٤١هـ.

٣- الأسلوب - دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية - تأليف أحمد الشايب - طبع مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٩١م .

٤- الأصول - دراسة أبيستيمولوجية للفكر اللغوى عند العرب للدكتور تمام حسان طبع دار الشئون الثقافية بالعراق - بغداد سنة ١٩٨٨م .

٥- الإعراب والتركيب بين الشكل والنسبة للدكتور محمود عبد السلام شرف الدين طبع دار مرجان بالقاهرة سنة ١٩٨٤ م .

٦- الأعلام-لخير الدين الزركلى - طبع دار العلم للملايين سنة ١٩٨٤م.

٧- الإمتاع والمؤانسة تأليف أبى حيان التوحيدى تصحيح وضبط أحمد أمين وأحمد الزين طبع المكتبة العصرية - لبنان .

٨- البرهان فى علوم القرآن للزركشى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم طبع دار التراث بالقاهرة .

٩- بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة للسيوطى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - طبع المكتبة العصرية - لبنان .

١٠- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة تحقيق السيد أحمد صقر طبع دار التراث بالقاهرة سنة ١٩٧٣م .

١١- تاج اللغة وصحاح العربية - الصحاح - للجوهرى - طبع دار إحياء التراث العربى لبنان سنة ١٩٩٩م .

١٢- جواهر الأدب فى معرفة كلام العرب لعلاء الدين الإربلى - تحقيق د/ حامد أحمد نيل طبع مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٨٤م.

١٣- دلائل الإعجاز تأليف عبد القاهر الجرجانى تحقيق محمود محمد شاكر نشر مكتبة الخانجى بمصر سنة ١٩٨٩م .

١٤- دلالة الألفاظ للدكتور إبراهيم أنيس نشر مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٦م.

١٥- طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكى تحقيق د / عبد الفتاح محمد الحلو ود/ محمود محمد الطناحى ، طبع مطبعة هجر سنة ١٩٨٦م .

١٦- علم الدلالة للدكتور / أحمد مختار عمر طبع مكتبة دار العروبة - الكويت سنة ١٩٨٣م.

١٧- علم اللغة بين التراث والمعاصرة تأليف الدكتور / عاطف مدكور - طبع دار الثقافة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٨٧م.

١٨- علم اللغة بين القديم والحديث تأليف الدكتور عبد الغفار حامد هلال طبع مطبعة الجبلاوى بالقاهرة سنة ١٩٨٤م.

١٩- فى علم اللغة العام تأليف الدكتور عبد الصبور شاهين طبع مؤسسة الرسالة سنة ١٩٨٤م .

٢٠- كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى تحقيق د/ لطفى عبد البديع ود/ عبد المنعم محمد حسين طبع الهيئة العامة للكتاب بمصر سنة ١٩٧٢م.

٢١- كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون تأليف حاجى خليفة _ طبع دار الكتب العلمية _ لبنان سنة ١٩٩٢م .

٢٢- الكلمة دراسة لغوية ومعجمية تأليف الدكتور حلمى خليل _ طبع دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية سنة ١٩٩٨م.

٢٣- الكليات تأليف أبى البقاء الكفوى تحقيق د / عدنان درويش ومحمد المصرى طبع دار الكتاب الإسلامى بمصر سنة ١٩٩٢م.

٢٤- المثل الثائر فى أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير تحقيق د/ أحمد الحوفى ود/ بدوى طبانة طبع دار النهضة بمصر .

٢٥- مجلة فصول _ المجلد الرابع عشر _ العدد الثالث سنة ١٩٩٥م .

٢٦- مصادر اللغة تأليف الدكتور عبد الحميد الشلقانى طبع جامعة الرياض بالسعودية سنة ١٤٠٠هـ .

٢٧- المصباح المنير للفيومى طبع المكتبة العصرية _ لبنان .

٢٨- المفصل فى علم العربية لأبى القاسم الزمخشرى طبع دار الجيل _ لبنان .

٢٩- المقدمة لابن خلدون تحقيق دوريش الجويدى طبع المكتبة العصرية سنة ١٩٩٥م.

٣٠- من وحى القرآن تأليف الدكتور إبراهيم السامرائى طبع اللجنة الوطنية بالعراق سنة ١٩٨١م .

٣١- لسان العرب لابن منظور طبع دار صادر بيروت - لبنان .

٣٢- اللغة والإبداع مبادئ علم الأسلوب العربى تأليف الدكتور شكرى محمد عياد الطبعة الأولى سنة ١٩٨٨م .

٣٣- النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير تحقيق طاهر أحمد الزاوى ومحمود محمد الطناحى المكتبة العلمية - لبنان .